من أجل عينيك

عمرو عادل

رواية: من أجل عينيك
المؤلف: عمرو عادل

تدقيق لغوي: آية النزهي
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: مروة فتحي
رقم الإيداع: 1595 / 2020
الترقيم الدولي: 978/977-6793-06-4
الطبعة الأولى: 2020
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

من أجل عينيك

(رواية)

عمرو عادل

إهداء

إلى جنة الحياة الدنيا زوجتي الرقيقة (رحاب إبراهيم)، رفيقة الأحلام والحقيقة.. شكرًا على الحلم والاحتمال حتى تصبح تلك الرواية صفحات بين يدي القراء..

****

إلى الأصدقاء

(مهند نبيل)، شكرًا على كل شيء

(إبراهيم سعد)، (عزة حراجي)، ترنيم محمود)، (يوسف حسين)، (د. أحمد صبري)

****

إلى الأستاذة هالة البشبيشي،

هالة النور التي تضيء لنا عتمة الطريق..

وإلى الأستاذ عماد علي العادلي،

المعلم والصديق الذي تعجز كلمات الشكر والعرفان أن توفيه حقه فالله وحده هو القادر على ذلك

،،

أسأل الله أن يرزقني محبتكم أبد الدهر

الإسكندرية، نوفمبر 1954م

الساعة 10:00 مساءً

انهمرت الأمطار غزيرة كأنما تصُب من السماء صبًا مصحوبة بدوى رعد أرجف هزيمة جنبات مدينة الإسكندرية الهادئة، وأخلى الطرقات من المارة، وأُغلقت الحوانيت وهو على عكس المعتاد في ميدان محطة الرمل حيث تروج حركة البيع والشراء حتى منتصف الليل.

كانت السمة العامة المسيطرة على الأجواء في تلك اللحظة هي السكون والهدوء التام حتى محطة الترام الشهيرة ذات التصميم البديع، دوت الإضاءة في أرجاء المحطة خافتة شاحبة حتى يُخيل للرائي أن الترام يقبع في سبات عميق داخل محطته من دون ركاب أو باعة جائلين داخل عرباته أو على جنبات المحطة.

كل هذا الصمت المطبق والسكون جعل من صوت الأقدام الراكضة على الإسفلت الندي واللهاث المتسارع القادم من شارع سعد زغلول كأنه قرع طبول الحرب.

لحظات وظهر الظل المهرول الممتد على طول الطريق الزلق، تبعه ظهور صاحب الظل، كان يجرى ويلتفت خلفه في فزع كأن شياطين الجحيم كلها تطارده، كان يجرى بقدميه بكل ما أُوتي من قوة، بينما أفكاره تستبق خطواته في عدوها.

لِمَ كُتب عليه هذا الفرار؟ هل سيظل مطاردًا هكذا حتى أخر عمره؟ هل كل ذنبه أنه فجأة وجد نفسه يحيا في وسط معادي؟

كانت جدته لأمه كثيرًا ما تروي له وهو طفل صغير حكايات التيه والشتات التي لُعن بها قومه، لكنها ظلت بذهنه دومًا، حكايات كأساطير الأولين أو تخاريف العجائز، ولِمَ لا؟ إنه لم يعرف أبدًا خلال سنو اته العشرين وطنًا إلَّا هُنا.

كذلك أبوه وجده وباقي عائلته وأسلافه، إنهم متجذرين في تلك البلاد، تمتد أذرعهم حتى عنان السماء، وتغوص سيقانهم متشبثة بطين الأرض، ما من مِرفق حكومي إلَّا وتجد بنوا جلدته على قمة هذا المِرفق.

هم ملوك الاقتصاد، أصحاب السيادة والمعالي، هم نو ابغ العِلم وثعالب السياسة، هم من أصَّلوا لشتى ألوان الفن من موسيقى وطَرب ومسرح وسينما، فما الذي حدث بين ليلة وضحاها؟

يبدو أنَّ السماء قد انطبقتْ على الأرض وأضحت الصورة معكوسة، سادة الأمس هم عبيد اليوم، وعلية القوم انحدروا إلى أسفل سافلين، أهذا هو جزاء قومه على كل ما قدموه من خدمات على مدى عقود لتلك البلاد؟ سُحقًا لهذا البلد الناكر للجميل.

كانت أفكاره تتداعى وعلى الرغم من ذلك لم يفقدْ تركيزه في مسار طريقه، فقد تجاوز ميدان الرمل وسلك عدة حواري وعبر عدة أزقة وهو يتلفت خلفه كي يتأكد من أنَّ أحد لا يُلاحقه.

وحين بلغ واجهة محل مغلق تُزين قمته لافتة كبيرة مكتوب عليها (توتي فابيانو للمجوهرات) توقف أمام الواجهة المغلقة وطرق بيده ثلاث طرقات مزدوجة.

لحظات ورُفعت بوابة المحل إلى منتصفها وخرج منها رجل خمسيني تطلع لوهلة إلى وجه الفتى وأمسك بذراعه وجذبه إلى داخل المحل، ثم جال ببصره سريعًا في أرجاء الشارع حتى اطمأن إلى خلو الطريق من المتعقبين، فأغلق بوابة المحل من جديد والتفت إلى الشاب الذي وقف يرتجف من الاضطراب والبرد والإجهاد، ولكنه لم يرأف به بل صاح في انفعال: «أنا حذرتك قبل كده بدل المَرة ألف لكن انت اللي راكب دماغك ومش عاوز تجيبها البر».

لم يَردْ الشاب على محدثه بأي جواب، ولكن نظرة من الاستسلام أطلتْ من عينيه، سادت لحظات من الصمت والترقب عاين فيها الرجل حالة الشاب، ثم تحرك بحماس وهو يربت على كتف الشاب ويقول بلهجة مغايرة مليئة باللطف: «خلاص يا حبيبي إنسى كل اللي فات، الجماعة كلهم هنا وفي انتظارك».

وسحب الشاب من ساعده إلى جدار مُزين برسومات ونقوش زاهية، فحرك باب صغير مخفي عن الأنظار الغير مدققة يكفي لدخول شخص واحد وهو منحني القامة، دفع الرجل الباب ودخل إلى حجرة جانبية وخلفه الشاب، طالعهم مجموعة من الرجال متباينين الأعمار يجلسون حول منضدة تتوسط الحُجرة يعلوها لمبة كبيرة مدلاة من السقف هي مصدر الضوء الوحيد بالحُجرة.

نهض أحد الرجال الجالسين وتوجه إلى الشاب ووضع يده على كتفي الشاب وهو يبتسم ويقول: «انت عارف إن كل إصرارك الفترة اللي فاتت وعنادك أوحتْ لقيادتنا في الوطن بفكرة عبقرية هتغير كل خطتنا اللي كنا شغالين عليها طول المدة اللي فاتت، وعلى رأي الناس حبايبك هِنا كل تأخيرة وفيها خيرة».

وضحك بصوتٍ عالٍ هو ومن بالحُجرة لكن الشاب ظلَّ على صمته وارتيابه، فعالجه الرجل بجدية مصطنعة: «يا أخي اضحك بقى خلاص، جاكوب ذكي ميخا كل اللي انت عاوزه هيتعمل».

وهنا لاحتْ ابتسامة خافتة على وجه جاكوب حملت كثير مما كان يُعتمل داخل صاحبها من توترٍ و انفعالٍ ومقتٍ وكراهية خلال الفترة الزمنية السابقة، والتي أخذتْ تزداد وتتسع حتى انقلبت إلى ضحكات عالية شاركه إياها كل الحاضرين.

***

خبر من جريدة «حوادث العاصمة».

17 ديسمبر 2017م.

شهدتْ منطقة مصر الجديدة حادث مؤسف، حيث نشب حريق هائل بإحدى شقق المنطقة راح ضحيته أسرة كاملة، وقد أسرعت قوة من المطافئ وشرطة النجدة بالوصول إلى موقع الحادث، وذلك بعد أن قام أحد الجيران بالإبلاغ عن الحريق... وقد تمكن رجال الإطفاء من السيطرة على الحريق قبل أن ينتقل إلى باقي شقق العمارة السكنية، ثم قامت قوة من رجال البحث الجنائي بالمعاينة والتحري وكشف مُلابسات الحادث، والتي أسفرت عن عدم وجود شُبهة جنائية، وبعد التحريات تبين أنَّ مالك الشقة محاسب يعمل مأمور بمصلحة الضرائب.

***

(قبل سبعة أيام)

–1–

ديسمبر هو رائحة النهاية مختلطة برائحة البداية،
هو الشعور بأن مرحلة سيئة توشك على الانقضاء،
هو الأمل الزائف أن الأمور ستتغير بانتهائه،
إن ما بعده عام جديد بحظ لربما سعيد!
–أحمد خالد توفيق–

القاهرة الجديدة
10 ديسمبر

انطلقت نغمات منبه الهاتف المحمول تبدد السكون وتوقظ النيام بصخبها، فتح طارق عينيه ولبث برهة من الوقت يُجاهد رغبة مُلحة بمعاودة النوم والرضوخ لسلطانه اللذيذ.

نهض من فِراشه وخرج من الغرفة مترنحًا إلى باب الحمَّام، ثم خرج وقطع صالة شقته بخطوات متئدة وتوجه إلى آخرها ووقف أمام باب خشبي متمتمًا بخفوت بالبسملة، ثم فتحه فظهرت خلفه حجرة صغيرة، عمد في إعدادها وتجهيزها كي تحاكي مسجدًا صغيرًا بحو افه المنقوشة بخطوط كوفية مزخرفة ومِحراب رخام وفُرش وثير.

دخل طارق إلى مُصلاه وهو يسلم على الملائكة وعباد الله الصالحين، وتوجه إلى عباءة صلاته المعلقة على مشجب في ركن المُصلى، ارتداها ووضع على رأسه طاقية بسيطة ناصعة البياض، وتوجه إلى القِبلة وصلى ركعتين.

ثم جلس متمهلًا يُردد أذكاره وأوراده التي تعلمها من شيخه وظلَّ يواظب عليها كل صباح ولسنوات عدة لم يعدْ يحصيها منذ أن تغير مجرى حياته وعرف طريق الشيخ ودخل في زمرة مريديه وأضحى تابعًا وفيًا لطريقته.

شردت أفكاره إلى أول لقاء جمعه بالشيخ حين قدمه له والده لعل ابنه يجد لديه شفاء لروحه السقيمة بعد ما مَر به من تجربة مريرة، تقدما حتى وصلا المنبر، فوجدا الشيخ يتم صلاته، جلسا ينتظراه حتى أقبل عليهما بوجهه، تذكر وجه الشيخ الوقور المضيء بنور الإيمان و ابتسامته الهادئة المطمئنة.

سلَّم والد طارق على الشيخ وهمَّ بتقبيل يده لولا أن نزعها الشيخ وهو يربت على كتفه محييًا، أَسر له الأب بكلماتٍ ثم أشار لولده فدنا يُسلم على الشيخ ويُقبل يده، فنظر له الشيخ مبتسمًا ووضع يده على صدره وتمتم بكلمات تبين منها طارق دعاءه له، ثم نظر إلى الوالد قائلًا: «ولدك سيُلازمنا ونسعد بصحبته منذ اليوم».

كانت تلك العِبارة إيذانًا ببدء خِلوة أخذت شهرًا كاملًا أمضاه طارق داخل الزاوية لا يبرحها، لازم الشيخ وتعلم منه، تعلم المحبة في الله ولله، تعلم أن بالجسد مضغة إذا صلحتْ صلح العمل وإذا فسدت فسد العمل ألا وهي القلب، والقلب داخل الصدر لا يَطلع عليه إلَّا الله.

تعلم أنَّ ليس للقلوب من علاج إلَّا ذِكر الله، فالذِكر يُلين القلب حتى يُدرك الحُب، والمحب لا يطرب إلَّا بذِكر حبيبه، والحُب غاية

المريد ومبتغاه، وبالحُب يندر مخالفة الحبيب وإن حدثتْ المخالفة مع الحُب يسهل الوصال.

أحوال وتجليات عاش فيها وبها على مدار شهر كامل، شعر خلالها طارق أنه وُلِد من جديد، حتى ناداه الشيخ في صبيحة أحد الأيام وقال له: «الآن يا ولدي آن لك الخروج».

لاح الانزعاج على وجه طارق فتابع الشيخ: «ليس بوجودك هُنا وحده النفع، فقد يستخدمك ربك لِما هو أنفع، فالحياة ما زالتْ أمامك في مقتبلها عَمرها بما يُرضي خالقك».

نهض مترددًا بعدما قَبَّل يد الشيخ محييًا حتى وصل إلى باب المُصلى، آتاه صوت الشيخ: «احرص على الوصال، يومان من كل سبعة تجدد فيهما العهود وتفي بما قطعته من وعود».

سرح طارق في ذكرياته وما أن أفاق منها وجد أنه قد لبث في جلسته قرابة النصف ساعة فخرج مسرعًا إلى حُجرة نومه، ارتدى ملابسه وحمل حقيبته وخرج من شقته وهو يغلق بابها خلفه برفق.

***

جلس طارق بمكتبه في مبنى مصلحة الضرائب، يُحيط به عددًا من الملفات الضخمة كدَّسها فوق بعضها، في حين ظلَّ منهمكًا في مطالعة إحداها عندما دخل عليه زميله أمجد لاهثًا من فرط بدانته، وقد ارتسمت على شفتيه ووجهه الأبيض ابتسامة سمحة وهو يستأذنه في الانصراف لأمرٍ هام يخص عمله الجديد بأحد مكاتب

الكمبيوتر والـsoftware، واستحلفه بالسيدة العذراء أن يُغطي غيابه حال سؤال أحد عنه.

همَّ طارق بالاعتراض لولا أن تذكر مدى الحماسة والتفاني الذي كان عليه أمجد في العمل منذ سنوات، فقد أظهر من الكفاءة والنبوغ في مجال البرمجة ما مكنه من تطوير شبكة المعلومات الضريبية للقطاع ككل، وبمجهود فردي دون أن يُكلف المصلحة أي أعباء خارجية للتطوير.

شرد طارق في أفكاره للحظات ظنَّها أمجد رفضًا لطلبه وساوره القلق، لكن طارق أسرع يُشير له بيده كي ينصرف وانهمك من جديد في الملف الذي أمامه حتى تلقى اتصالًا من مديره يطالبه بالحضور على وجه السرعة.

دخل إلى حجرة مديره الذي ابتدره فور رؤيته بأن ناوله ملفًا وهو يخبره بأن رئيس المصلحة بنفسه هو الذي اختاره لفحص هذا الملف، طالع طارق اسم الشركة وهو يردده متمتما: «المجموعة العالمية (G.SH.M)». ثم تابع ضاحكًا: «أو على رأى الناس غُشم».

نظر له مديره شذرًا: «الكلام اللي بتقوله ده كلام الناس اللي مش فاهمة، الاسم له مدلول مش مجرد حروف فارغة، حرف (G) يدل على اسم جودت وده طبعًا اسم صاحب المجموعة، وحرفي (SH) يدلان على اسم ابنته شاهيناز، أمَّا حرف (M) فبيدل على اسم ابنه مراد».

تساءل طارق: «تمام يا ريس لكن إيه اللي حصل في الدنيا؟ المجموعة دي كانت محمية طبيعية ممنوع الاقتراب منها أو التصوير».

المدير: «لا حصل كتير بس انت اللي مش متابع، الدنيا اتغير حالها والقيادة الجديدة متبنية شعار إن مفيش حد فوق القانون، يعني أنا مش عارف هما مستمرين في رفع الشعار ده لحد إمتى، لكن إلى أن يجد جديد نفضل نعمل شغلنا عادي جدًا».

ثم تابع وهو يهرب بعينه من نظرات طارق المتشككة: «وعلى العموم جودت بيه خلاص الله يرحمه مات من شهرين، دلوقتي انت هتنزل من هنا هتلاقي عربية من المجموعة و اقفة في انتظارك قدام باب المصلحة، و انت في الطريق تدرس الملف وتروح هناك تبدأ شغل على طول».

طارق: «حاضر يا ريس».

***

حين وصل طارق إلى مقر المجموعة وجد في استقباله محاسب الضرائب الذي حيَّاه بترحاب وقاده عبر أروقة المجموعة واضحة الفخامة إلى حجرة المدير المالي الذي أخبره أنهم خصصوا له مكتبًا يُمارس فيه عمله خلال فترة تواجده بالمجموعة، وأنَّ محاسب الضرائب هو الذي سيكون ملازمًا له وسيلبي كل متطلباته، فحيَّاه طارق شاكرًا.

زفر محاسب الضرائب بضيق وهو يدخل إلى مكتب المدير المالي والذي طالع على وجهه أمارات الكدر فقال متسائلًا: «مالك قالب وشك ليه؟».

أجابه: «أعمل إيه بس يا مستر، الراجل مأمور الضرائب ده من ساعة ما وصل وهو مش مبطل طلبات، مش مخلي ورقة إلَّا وعاوز يشوفها ويستفسر عليها ويدقق فيها لمَّا خلاص خلاني شوية وهانفجر فيه».

أشار إليه المدير المالي مُحذرًا: «أوعى تتصرف من دماغك، أنت فاهم كويس إننا لازم نحسس عليه عشان مش عاوزين مشاكل كمان مع بتوع الضرائب كفاية المشاكل اللي عندنا».

ثم نهض وهمَّ بمغادرة مكتبه لولا أن استوقفه صوت رنين الهاتف فأسرع يلتقط السماعة وهو يستمع إلى محدثه ثم أجاب: «حاضر تحت أمر حضرتك يا فندم».

وضع السماعة وهو ينظر إلى مسئول الضرائب قائلًا بتعجب: «الـ Group Owner عاوز مأمور الضرائب في مكتبه حالًا».

ثم أسرع يغادر مكتبه والموظف يهرع خلفه مهرولًا حتى وصلا إلى المكتب المخصص لطارق فوجداه منهمكًا فيما أمامه من بيانات وملفات، فقاطعه المدير المالي للمجموعة قائلًا: «مستر طارق بعتذر لحضرتك ممكن نعطلك عن شغلك دقايق؟ أصل owner المجموعة الجديد عاوز يرحب بحضرتك».

وصلا إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة، فطرق المدير المالي الباب ثم دخل وتبعه طارق إلى قاعة واسعة بُطنت جدرانها بمادة عازلة للصوت، بينما يقبع في آخرها مكتب ضخم خلفه جدار زجاجي يشمل كل الحائط يُتيح للجالس في الغرفة رؤية واجهة المجموعة ولا يسمح بالعكس.

ويقع على يمين المكتب أنتريه وثير، وعن يساره منضدة طويلة بيضاوية الشكل، أشار إليها المدير المالي للمجموعة وهو يخاطب طارق قائلًا: «اتفضل يا مستر طارق لحظات ويكون الـGroup Owner مع حضرتك».

قالها وأسرع بالانصراف تاركًا طارق وحيدًا يتأمل الغرفة التي تنطق كل قطعة من أثاثها بالأناقة والفخامة للحظات حتى داعب أنفه عطر (Chanel N 5)، تجمدت نظراته وراودته ذكريات تقبع في ماضٍ سحيق، حتى وصلته كلماتها تقضي على أي حيرة في نفسه: «أهلًا يا طارق منور المجموعة كلها».

وقبل أن يلتفت إليها ويرى وجهها ويُصافح يدها الممدودة بالسلام علم أنها هي، وتوقف الزمن من حوله وعاودته الذكريات الدفينة منذ عقود، والتي جاهد كثيرًا وبذل الألم والجُهد حتى يتجاوزها.

***

–2–

الماضي لا يموت..
إنه يُبعث في الحاضر بألف صورة و صورة..
–مصطفى محمود–

«طارق»

تنتمى أسرة طارق حسين الجارم إلى صعيد مصر، وكانت ولادته بعد فترة طويلة من ولادة أخته الكبرى تتجاوز العشر سنوات، حين وُلد احتفوا به أيما احتفاء، وبالغوا في تدليله وتلبية أدنى رغبة من رغباته، فقد كان السند والظَهر وكل تلك المسميات التي تضفيها معظم أُسر الصعيد على المولود الذَكر.

وكان والده يعمل مأمورًا بمصلحة الضرائب، مشغولًا معظم الوقت بعمله، ومضتْ الأيام والسنون وتزوجت الابنة وسافرت إلى إحدى الدول العربية مع زوجها، وفي نفس العام التحق طارق بكلية التجارة جامعة عين شمس، ومعها اختفتْ أي رقابة أو توجيه له، خاصة ووالديه يرونه يشب أمامهما طولًا وعرضًا.

وبدأتْ الدراسة ومن أول شهر داخل الحَرم الجامعي قابل (روان)، كان أول ما جذبه عينيها الزرقاوين اللتان تنافسان صفحة السماء في يوم مشرق صحو، وشَعرها المتموج المتدلي حتى خصرها في لون ووهج الشمس المبهرة، وبشرتها البرونزية كأنها خرجت توًا من

حمام شمس على سواحل مرمرية التربة، و أنفها البارز في شمم فوق شفتان شهيتان بقامتها الطويلة الممتلئة في تناسقٍ يُبرز أنوثة مكتملة النضوج.

كانت كنجمة في السماء بعيدة المنال يرنو إليها الجميع، فمَن هو وسط شباب الكُلية المحلقين حولها والملاحقين لها، فشِلتها المُقربة تربطهم رو ابط عديدة، من وسط اجتماعي ومادي متقارب، وبحسبة بسيطة شَعر بحواجز كبيرة تفصل بينهما، وأحس بنفسه تتضاءل وكاد يفقد ثقته بها.

ومرتْ أيام الكُلية الأُولى وبدأت تنشط حركة الطلاب وأعلنت الأُسر الجامعية عن برامجها الثقافية والترفيهية لجذب أكبر عدد من الطلاب الجدد، أعلنت إحداها عن تنظيمها لرحلة ترفيهية للدعاية عن نفسها، كانت الرحلة لزيارة معالِم القاهرة السياحية وحضور فيلم سينمائي، وتُنهي برنامجها بزيارة شائقة لأحد أشهر ملاهي القاهرة آن ذاك.

وحين بدأ برنامج الرحلة وجد روان تخطو برشاقة و انطلاق بأرجاء قلعة الجبل، كان يختلس إليها النظرات وهي تلتقط الصور مع أصدقائها، تميل ملتقطة صورة مع تمثال الشمع الخاص بمحمد علي فيميل معها قلبه، وعينيه تختلس النظر إلى صدرها الرجراج خلف البَدي الأسود المنحسر عن أسفل ظهرها الناصع البياض حتى أعلى مؤخرتها البارزة من بنطالها الجينز الأزرق.

مضى برنامج الرحلة حتى وصلوا إلى آخر مراحله، وانطلق الجميع في صخبٍ يتزاحمون على شبابيك التذاكر لممارسة الألعاب المنتشرة بالمكان.

وقف طارق مع ثلاثة من زملائه يتناقشون حول اختيار لعبة البداية، وبينما هم يتحاورن وجد طارق روان تقف في طابور طويل تنتظر دورها في الحصول على تذكرة أحد الألعاب، وجد أحد الشباب خلفها يختلس منها نظرات مشيرًا إلى أصدقائه متبادلين ضحكات ساخرة تعلو وجوههم نظرات شرهة، ثم قرب وجهه من رأسها وأَسر لها بكلمات فالتفتتْ إليه ولطمته على وجهه بصفعة وضعت بها كل انفعالها.

دُهِش الشاب للحظة ثم همَّ بمشاجرتها ومن خلفه أصحابه يشاركونه تحرشه، وقتها لم يشعرْ طارق كيف قطع المسافة التي تفصله عنهم وفي لحظة قفز السور الحديدي فكان وسطهم، شعر بغضب يجتاحه لم يعهده من قبل، لم يكنْ سبب غضبه حبًا أو غيرة على روان فمثل تلك المشاعر تحتاج إلى معايشة وحياة خصبة بالمواقف تنبت وسطها.

كان غضبه من أجل مشهد الانتهاك المبتذل، الانتهاك لروان ولوجودها بينهم ولوجودهم حولها، شَعر أنَّ هذا الانتهاك أصابه كما أصابها، وكان لابد من رد، فاشتبك مع المتحرشين وكاد الأمر أن يتفاقم بينهم لاعتداء دموي لولا تدخل أمن الملاهي وكاميرات المراقبة التي أوضحت دفاع طارق عن زميلته.

وحين هدأتْ الأمور كان أول ما طالعه هو عيني روان يطل منهما نظرة أبلغ من كل معاني الشُكر والعرفان، تلاها تعارف ثم انجذاب أعقبه غرقًا في بحور العشق والهيام لشهور امتدت لسنوات.

ومَر العام الأول بالكُلية و أقبلت الإجازة الصيفية فانفض الطلاب و انشغل كل منهم بعائلته وأموره الخاصة، عدا مجموعة صغيرة تقارب العشرة شباب وخمس شابات، لم تمنعهم الإجازة من التواصل واللقاء لسكنهم في مناطق متقاربة أتاحت لهم اللقاء بأحد النوادي الر اقية القريبة.

كانوا من القرب والصداقة قد ارتبط بعضهم بزواج عرفي معلوم لباقي دائرتهم الصغيرة، وللعجب أن العلاقة بين طارق وروان لم تخضع لمثل هذا الزواج على الرغم من استمتاعهم بعلاقة جنسية لم تتطور إلى هتك عذريتها لشعور طارق بالفروق التي تحول بين عالميهما، فقد كانت روان ابنة للنائب (فهمي الحوفي) رجل الأعمال المعروف الذي خلق لنفسه نفوذ سياسي داخل أحد أحزاب المعارضة المستأنسة.

أخذ ينفق من أمواله على الحزب وجريدته المعارضة حتى أضحى الرجل الأول في الهيكل التنظيمي للحزب، والمحرك الأوحد لقراراته والتي كانت دومًا لا تتم إلَّا بعد التنسيق مع رجال الحكومة في مشهد خفي عن أعين الجماهير الذين لا يشاهدون على صفحات الجر ائد سوى تصريحات رجال الحِزب المعارض تصب غضبها على الحكومة وأدائها.

كان والد روان رجلًا يمتلك المال والسياسة، وكانت روان ابنته الوحيدة، والتي يضع تحت أمرها كل ما يحقق رغباتها، فكانت كلما طرأت بذهنها فكرة مهما كانت غرابتها لا تتورع عن تنفيذها دون أي رادع، فكثيرًا ما كانت تفاجئ طارق بقُبلة خاطفة من فمه داخل الحَرم الجامعي، أو ترخي رأسها على كتفه ويداعب أنفه عطرها الأثير (Chanel N 5) وهما يستمعان إلى فيروز بكافتيريا الجامعة، أو تصرخ بأعلى صوتها: «بحبك يا طارق» في مدرج الكُلية.

كان يحب عفويتها وانطلاقها، ويعشق محاولاتها المتجددة للتعبير عن حُبها، لكن ذلك لم يمنعه من ألَّا تجتاز علاقتهما مدى أبعد مما هم فيه.

كان طارق يعلم أنهم يعيشون في عالَم طبقي مهما تستر وراء مظاهر برَّاقة من القانون والمساواة، فمَن يجرؤ على محاسبة ابنة النائب الشهير أو يقترب من حبيبها، كان هذا مصدر جرأتها بينما كان مصدر تعاسته، فكثيرًا ما شَعر بالضيق لأن حبيبته تستمد قوتها من نفوذ والدها وليس منه.

كان هذا الاضطراب أحيانًا ما يظهر في نوبة غضب تعصف بها، دائمًا ما تستكين أمامها كقطة منكمشة فتملكه بخضوعها من جديد.

حتى كان يوم اجتمعت فيه شلتهم بمنزل أحد الأصدقاء، وبينما هم في غمرة مرحهم، فاجأهم صديقهم بوضع ورق بفرة وقطع صغيرة منسقة من الحشيش الخام غير المخلوط على حد وصفه لهم،

كان لمنظر قطع الحشيش ثقل نفسي أصابهم بالتردد، حتى تجرأ أحدهم وبدأ في لف سيجارة خلطها جيدًا مع التبغ وأشعلها ثم أبدى استحسانه، فتبعه الشباب يتناوبون على الفرشة التي أمامهم.

كان هذا أول عهدهم بعالَم الكيف، وفي بضع شهور مروا بجميع أنواع المخدرات المعروفة آن ذاك، بدءً من الحشيش وصولًا لحقن الهيروين، تتابعت الأيام واستمر معها الحال على ما هو عليه حتى أقبل العام الدراسي الرابع، وجاءت الامتحانات النهائية وكانت النتيجة المتوقعة هي الرسوب لكل أعضاء الشلة.

كانت صدمة كُبرى للأهالي والذين كانوا لا يعلمون عن أولادهم شيئًا، وكان من ضمن هؤلاء الأهالي والدي طارق، وأدرك الوالد في لحظة صدق أنه كان بعيدًا كل البعد عن ولده، فقرر التدخل عسى أن يدرك ما يمكن إنقاذه... فذهب إلى الكُلية واستعان ببعض معارفه داخلها للحصول على معلومات عن ولده الوحيد، تجلتْ الحقائق أمام عينيه المذهولتين من هول ما علم، وكانت صدمته أكبر بكثير من صدمة الرسوب.

وبعد عدة أيام من الحُزن والتأمل مكنته من تقييم الموقف، فوجئت به زوجته في الصباح الباكر يقف أمام المرآة مرتديًا جلبابه وعمامته، وعندما سألته متوجسة عمَّا يدور في ذهنه أجابها باقتضاب ووجه متجهم: «الزرعة لمَّا تخرج من الطين تموت يا زينب، وعشان ترجع تعيش لزمن تعود للطين وتندفن فيه من جديد».

***

–3–

غريب أن يكره الإنسان نفسه وكأنه إنسان آخر!
–جان بول سارتر–

«روان»

حين أفرغت روان المحقن بكامله في ذراعها كانت قد فقدت قبلها كل أمل في العثورعلى حبيبها، ارتمت على المقعد في حالة من العَجز والضياع التام، أغمضتْ عينها وعضَّت شفتها السُفلى في قهر حتى أدمتها وهي تتذكررحلة البحث المضنية عن طارق.

سألتْ كل من تأملتْ فيه أنه يملك ولو معلومة عنه، طرقتْ كل الأبواب التي أحست بوجوده خلفها، وباءتْ كل محاولاتها بالفشل، وفي لحظة ضيق ويأس ذهبتْ إلى بيته.

صعدتْ في خطوات متعثرة إلى الطابق الذي يحوي شقة والديه، وبيدٍ مترددة ضغطتْ جرس الباب، قاومت شعورصارخ يستحثها على الفرار، لكن لم تطاوعها قدماها.

فُتِح الباب ووقفت أم طارق على عتبته وهي تتفحصها بتساؤلٍ، رمقت روان الأرض بارتباك وهي تسألها عن طارق، أجابتها الأم بلهجة جافة: «طارق خلاص مبقاش موجود».

زاد ارتباكها وهي تسألها عن معنى هذا الكلام، بادلتها الأم على سؤالها بسؤال مَن تكون؟ وما علاقتها بابنها؟ ولماذا تسأل عنه؟ فيض من الأسئلة لم تدرِ روان بعده إلَّا وهي تفر من أمامها مسرعة، هبطت درجات السلم يشيعها صياح المرأة ولعناتها على مَن أفسدوا عليها ولدها وأضاعوا مستقبله.

عندما خرجت من باب العمارة، ولفح وجهها هواء الشارع البارد، لم تتمالك نفسها وانهارت باكية على الإفريز، اجتمع عليها ألم نفسي وشعور عميق بالمهانة، وألم بدني عصف بجسدها كله من حاجتها الصارخة للجرعة الساحرة.

تدفقتْ الأفكار متصارعة داخل ذهنها، لقد كان طارق يمثل لها كل شيء، طارق الذي قابلته في السَنة الأُولى من الجامعة، لم تنكرْ أنَّ أول ما جذبها فيه شكله، فهو أسمر وسيم الملامح طويل القامة له شارب ضخم يعطيه عمرًا أكبر من عمره، حتى كان يوم الرحلة ودفاعه عنها، يومها غمرها شعور عامر بالأمان، إحساس لم تعتده من قبل في أي مرحلة من مراحل حياتها السابقة، هل هذا بسبب نشأتها؟ حقيقة لا تدري.

كانت والدتها ذات ثقافة دينية، تكلمها عن الصلاة وتحاول تحفيظها سور قصيرة من القرآن، حتى استيقظتْ ذات صباح ولم تجدها، وحين سألتْ عنها أخبروها أنها سافرت إلى مكانٍ بعيد.

تطور الأمر بعد عدة أيام إلى موت لا رجعة منه، وتعلَّم قلبها الصغير معنى اليتم، يُتم فقد الأم بالوفاة ويُتم فقد الأب الغير موجود

طوال الوقت، المشغول دائمًا بأعماله و اتصالاته ولقاءاته التي لا تنتهي.

كانت علاقتها بوالدها سطحية فاترة، وكان أبوها يعاملها بطريقة (اطلبي ما تشائين ولا تعطليني بأمورك التافهة)، هكذا نشأتْ وهكذا اعتادتْ.

كانت تريد طارق وحصلت عليه، وللغرابة كثيرًا ما كان يؤرقها هاجس يسيطر عليها أنها ستفقد حبيبها في يومٍ من الأيام، هاجس جعلها تنطلق بكل جوارحها تشاركه كل أوقاته، أغرته باجتياحها في الفراش لكنه كان دومًا يقاومها.

لم تفهم أبدًا منطقه أو تقتنع بمبرراته التي يسوقها بالحُب تارة وبالغضب تارة أخرى، وعندما ثارتْ لنفسها أخبرته أنه لا يشعر بقدرها وقيمتها، وأنها لو أشارت لأي شخصٍ أخر لارتمى تحت قدميها حبوًا.

لم يرد طارق على كلامها إلَّا بنظرة غضب طويلة ثم ارتدى ملابسه وتركها وحيدة و انصرف، شعرتْ بمهانة لا حدَّ لها، قررتْ أن تثأر لكرامتها الجريحة، نفذتْ تهديدها ملوحة لأحد معجبيها، فهرع لا يصدق نفسه أنَّ المانع الذي كان يعيق الجميع عـــنها تلاشى أخيرًا.

سار خلفها في كل الأماكن التي يتواجد بها طارق، وعمدتْ إلى افتعال كل المو اقف التي من شأنها أن تحرك جبل الجليد، حتى كان يوم بلغ يأسها مبلغه، ووصل غضبها منه ومن نفسها ذروته.

كانت في حفلة شبابية صاخبة، شربت كل ما طالته يدها وعُرض عليها، ووقفت ترقص متمايلة بين أحضان معجبيها، وفجأة شعرت بيد قوية تقبض على معصمها بحزمٍ فأزاحتها غاضبة وهي تعاود لهوها من جديد.

ولوهلة أحست كأن الزمن توقف من حولها، إثر صفعة هزتْ كيانها وعينين غاضبتين غابت في سوادهما، كانت تلك هي المَرة الأُولى في حياتها المنعمة التي تذوق فيها طعم هذا الألم.

ألم لذيذ أشعرها بالسعادة، سعادة فرتْ من عينيها على شكل دموع أخفقت أن تداريها، ورأت من بين مدامعها الشاب الذي كان يرافقها سهرتها يهاجم طارق فيجاوبه بلكمة فيلقيه أرضًا، وأخر يحاول أن يتدخل مدافعًا عن الشاب المضروب فلا يجد إلَّا رأس طارق تفقده الوعي، وتكهرب الجو، وطوَّق أصدقاء طارق صديقهم ليحموه، فجذبها طارق بحزم فسارت خلفه في خضوع.

سارتْ تتبع خطواته ولا تتجاوزها، أقسمت في نفسها أنها ستسير خلفه حتى لو ذهب بها إلى أخر العالَم، ومنذ ذلك الحين وإرادتها وفق مراده وهواها يتبع هواه، أصبح هو كونها الذي تحيا فيه وبه.

امتزج كيانها بكيانه، صار رضاه غايتها وأملها، هكذا عاشت مع حبيبها طارق، عاشت الحياة به ومن خلاله وعلى دربه، وعندما ضاع منها وتيقنت أنها فقدته فقدتْ معه كل رغبة لها في الحياة.

كانت تلك آخر الأفكار التي دارتْ بعقل روان قبل أن تغيب في رحلةٍ سرمدية بعد حقنة الهيروين التي سرت في جسدها.

***

(طارق)

ألقت كلمات والد طارق الرعب في قلب زوجته، ولكن نظرات الحَزم المطلة من عينيه أخرست بداخلها أي احتجاج، وخلال رحلة دامتْ لأكثر من عشر ساعات بالقطار لم يتبادلا خلالها كلمة واحدة لم يحاول طارق أن يسأل عن وجهتهم، وعلى الرغم من توجسه وقلقه كانت تلم به سعادة دفينة لإحساسه لأول مَرة باهتمام والده.

كان وجوده بالقرب منه يشعره بأمان كان يفتقده، استمر الحال حتى وصلا إلى إحدى المراكز التابعة لمحافظة قنا، ركبا مواصلة أخرى أنزلتهما أمام بيت كبير مكون من طابقين يحيطه سور وحديقة كبيرة.

خرج أهل البيت للترحيب بهم في سعادة جمة، ثم سأل الوالد عن عمه فأشاروا إلى حجرة جانبية، دخلا إليها فوجدا رجلًا كبير السن، إلَّا أنَّ جسده ما زال محتفظًا بآثار قوة وعنفوان الشباب.

ملامح ووجهه تفيض بالحيوية والإشراق، تحيطه هالة من الهيبة، يتكأ بساعديه على عصا أبنوسية لامعة، أسرع والد طارق إليه وقبَّل يده وأَسر له ببعض الكلمات، ثم أشار له والده وقال: «سلم على جدك وبوس إيده».

فتقدم طارق وسلَّم على الرجل الكبير بيده، فنظر له الرجل لبرهة ولاح على وجهه المتغضن شبح ابتسامة سرعان ما تلاشتْ وهو ينظر إلى الأب نظرة مطمئنة بات بعدها الوالد ليلته ثم عاد في اليوم التالي إلى القاهرة.

سبعة أيام كاملة قضاها طارق داخل غرفة مغلقة تم تفتيشه جيدًا قبل دخولها، وبدأ ألم الانسحاب، ألم ظنَّ طارق أنه سيؤدي بحياته ويورده حتفه، ألم جعله يطرق باب الغرفة حتى كاد يمزق يداه، سبَّ ولعن كل من حوله حتى كادت تتمزق حنجرته.

في اليوم الثاني حاول أن يقاوم وانتظر عندما فُتح الباب، هجم على الشخصان اللذان يحضران الطعام لكنهما كانا شابين جلدين وكانا يتوقعان هجومه فتلقفاه بحسمٍ، وضعا الطعام وخرجا مسرعين، أخذ يسبهم بأقذع الألفاظ وقلب صينية الطعام بما عليها ولكن ما من مجيب.

وفي المساء كان قد استعد جيدًا، وأمسك بصينية الطعام وعمد أن يستخدمها كسلاح بيده، وجاء نفس الشخصان ولكنهما لم يكونا وحدهما كانت معهما شابة صغيرة الحجم تتحسس طريقها في رهبة وسط العملاقين.

أُخِذ بملابسها الفضفاضة، وغطاء رأسها البسيط، تأمل بشرتها الخمرية، و أنفها الكبير بعض الشيء بالنسبة لوجهها الصغير، وفمها المنمنم، وعندما تطلع إلى عينيها السوداوين الواسعتين نسى ما كان يعتزم فعله منذ دقائق.

كانت عيناها تشعان بحنانٍ جارفٍ لكل من حولها، لحظات كانت كافية لأن يتحرك خلالها الشابين ويقيداه جيدًا بينما الفتاة تقترب منه بحذر، وفي لحظة واحدة كما النحلة كانت تحقنه بشيء في ساعده وتطهر مكان الإبرة وتفر من أمامه، ولشدة تعجبه مضت ليلته في هدوء نسبي، خمن أن يكون هذا بسبب الحقنة التي حقنته بها الفتاة والتي غالبًا ما تكون مُسكن قوى المفعول، وتكرر نفس الأمر في اليوم الثالث.

وفي اليوم الرابع لمح شبح ابتسامة رضا ترتسم على شفتيها الرقيقتين وهي تتحسس غطاء رأسها وتغادر الغرفة بارتباك.

وجاء اليوم السابع، في الصباح الباكر فُتح الباب وفوجئ بالرجل الكبير يتطلع له مبتسمًا قائلًا: «يا ولدي الصحة نعمة وهبها لنا ربنا ويحاسبنا عليها يوم الموقف العظيم، يا نستخدمها في الخير يا تنقلب لنقمة تعود بالشر عليك وعلى كل اللي حواليك».

ثم ربت على كتفه وقال: «طبعًا انت لساك ماتعلمش عني شيء، أنا يا ولدي الحاج عبد الرحمن الجارم كبير عائلة الجارم وعم أبوك حسين الجارم وكمان أمك زينب الجارم، على العموم قوم اتسبح وغير خلجاتك وتعالى نفطر وبعدين نكمل تعارف».

وعلى المائدة التف رجال العائلة، وأخذ طارق يتأمل وجوههم وصخبهم و أياديهم تتشابك وتحلق حول الأطباق المرصوصة في نهم، لاحظ الحاج عبد الرحمن نظراته فقال وهو يشير إلى الحضور من أمامه: «كل يا ولدي مفيش حد غريب عندنا، كل دول ولاد أعمامك

وولاد أخوالك، مش وقت تعارف لكن بعدين هتتعرف عليهم واحد واحد لمَّا تقفوا جار بعض في الغيط».

وبعد ساعة من الزمن كان طارق يقف عاري القدمين مرتديًا جلبابًا قد انحسر عن قدميه وتوارت أطرافه داخل كلسون أبيض اللون، ممسكًا بفأس ضخم ثقيل وزنه يضرب به الأرض من أمامه، تلفحه أشعة الشمس المحرقة.

شعر بإرهاق شديد، وألم رهيب يعصف بعظام ظهره، في حين تقرحت راحتاه وأُنهك ساعداه من أثر الضرب بالفأس...

استمر الحال على تلك المعاناة تحيطه نظرات السخرية وهمسات الزراية من قلة جَلَده وصلابته، فقد كان في نظرهم الشاب القاهري المرفه، ضعيف الجسد.

كانت لكلماتهم الساخرة دون إهانة ولمعاملاتهم الودودة أكبر الأثر في أن يتولد داخله حافز يدفعه دفعًا للتعلم والتأقلم مع عادات البيئة الجديدة من حوله، وتعجب حين لاحظ أن معظم من حوله قد عانى ألم يتم الوالدين أو أحدهما، إلَّا أنَّ الحاج عبد الرحمن تعهدهم برعايته وتكفل بالإنفاق عليهم، وجعل من بيته مسكنًا ومأوى لهم، مما جعل طارق يعجب بجده عبد الرحمن ويتعجب من أمره في ذات الوقت، فهو على الرغم من تجاوزه سن السبعين إلَّا أنه لم تكنْ تغيب عنه شاردة ولا واردة... كان يتابع بدأبٍ زراعة الأرض و إنتاج مزارع الماشية ويشرف على حركة التوريدات للعملاء، كما أنه كان ملاذًا لكثيرين من أبناء قريته فهو يتكفل بإعالة أسر كاملة يقيم

شر العوز، ويجعل من مندرة بيته مكانًا لفض المنازعات الناشبة بين المتخاصمين، يشارك في الأفراح والأحزان، وكل هذا لا يمنعه عن متابعه أحوال عائلته والعناية بذوي رحمه.

وبعد مرور شهر كان طارق قد اعتاد تلك الحياة الجديدة، كان يضرب في الأرض وكلما يضرب تتباعد حياته السابقة من أمامه أكثر وأكثر، كان العَرق يتصبب من جبينه ومعه تتساقط ذكرياته وكل ما عاناه من ماضٍ أليم.

كان لا يؤرقه شيء سوى حنينه لأبيه وأمه ورغبته العارمة في الانكباب على أيديهما و أقدامهما يطلب منهما الصفح والغفران.

***

(روان)

فتحت روان عينها بصعوبة وتساءلت عن مكان تواجدها، فخرج صوتها مختنقًا لا تكاد تميزه، طالعها وجه أبيها القَلِق ووجه طبيب شاب يبتسم في رضا وهو يحدثه بكلمات مطمْئنة، فأكد له الأب أن سبب قلقه ليس ابنته ولكن خشيته من انتشار خبر ما حدث على الرأي العام.

فأغمضتْ روان عينها من جديد في قنوت واستسلام لمصيرها، لقد أصبح كل شيء يتساوى عندها دون وجود طارق، استسلمت وهي ترى أبيها ينهي متعجلًا وفي سرية تامة إجراءات سفرها لأمريكا

ويقوم بحجزها في إحدى المستشفيات المتخصصة لعلاج الإدمان، استسلمت لجلسات العلاج النفسي حتى تتجاوز كل ما مَر بها.

وأخيرًا جاءت شهادة الطبيب النفسي الموقعة بأنها شفيت من إدمانها، وتستطيع ممارسة حياتها بشكل طبيعي، تجاوزت كل مراحل العلاج وشُفيت من كل أمراضها إلَّا داء واحد ظلَّ ملازمًا لها وهو داء الاستسلام حتى فقدتْ كل إرادتها يوم استسلمت لعرض الزواج المقدم من رجل يكبر أبوها بسنوات.

كانوا في اجتماع عَشاء عمل مع أحد كبار رجال الأعمال، ظلَّ والدها يلهث شهورًا حتى يحظى بلقياه، رآها الشيخ الهَرم فأعجبته.

رأى والدها أن تلك زِيجَة ستزيد ثروته وتُرسخ موقفه السياسي، فالعريس من رجال أعمال البلد القدامى، قضى حياته في التلون بين العصور المختلفة، مرتْ عليه عهود الاشتراكية والانفتاح والخصخصة فخرج من كل مرحلة مُظفر الجيب مُكدس الخزائن.

تلك المكانة سمحت له بتكوين إمبراطوريته الخاصة التي امتدتْ داخل مصر وخارجها، انطلق مدعمًا لكل العهود تارة بأمواله وتارة بعلاقاته الخارجية، فحاز رضا ومباركة كل العهود على اختلاف توجهاتها وتعارضها، بل نال دعم الدولة ومِنَحِها، ففُصِلت له القوانين ووئدت من أجله استثمارات المنافسين، حتى حلقت شركاته وحيدة في سماء الاقتصاد العالمي تحت اسم مجموعة (G.SH.M).

***

–4–

عندما تَحدثتُ إليك ضحكت
وقلت إن الحياة سهلة للغاية
ما قصدته هو أن الحياة سهلة ولطيفة جدًا
عندما تكون معي،
وعندما تغادر تعود قاسية وصعبة من جديد
–ميراندا جولي–

كل تلك الذكريات انهمرت بعقليهما قبل أن تلتقي أعينهما، لحظات من الصمت شملتهما سبح كل منهما خلالها في بحور ذكرياته، تحركت روان ناحيته وهي تمد يدها بسلام حار، و ابتسامة مشرقة، وتجلت في عينيها نظرة متلهفة.

بادلها طارق بسلام متردد، و ابتسامة مرتبكة ونظرة قلقة متوجسة، أشارتْ له بالجلوس وهي تتخذ مقعدها على رأس منضدة الاجتماعات الكبيرة وتقول: «جميلة الصدفة اللي جمعتنا بيك النهارده وخلتنا نشوفك بعد غياب أكتر من 15 سنة».

وضغطت على زربجانيها فأجابتها مديرة المكتب تسألها عن طلبها فنظرت إلى طارق تسأله عما يشربه فاعتذر، نظرت له مداعبة: «يا أدبك، انت معتبر نفسك غريب؟ أنا عندي هنا قهوة ممتازة (coffee blue mountain) بتيجي ليا مخصوص من جاميكا».

جاوبها طارق بنظرة صارمة من عينه فتراجعت تقول بمرحٍ: «خلاص يا بيبي أنا عارفة طلبك من الأول».

وضغطت على الزر ثانية وهي تقول بانطلاق: «عاوزه شاي مش فتلة يكون تقيل جدًا، آه ويكون في كوباية مش فنجان، والقهوة بتاعتي»... وأغلقت الخط وهي تنظر إليه بعينين تكاد تأكله بهما من شدة الشغف وهي تقول: «أنا ما صدقت لاقيتك، انت كنت مختفي فين المدة دي كلها؟ أنا كنت فاكرة إنك هاجرت».

ارتبك طارق أمام نظراتها الجريئة ورد متلعثمًا: «ما هو أنا فعلًا هاجرت».

وأخذ نفسًا عميقًا سيطربه على مشاعره وهو يقول: «أنا هاجرت بعيد عن كل الوساخة اللي كنت غرقان فيها زمان».

عقدت حاجبيها وهي تقول بانفعال: «أنت ماهجرتش يا طارق أنت هربت، هربت وسيبتني لوحدي في أصعب الأوقات اللي كنت محتاجة ليك فيها».

كانت تتكلم بانفعال وعصبية لكنها صمتت للحظات استجمعت خلالها شتات نفسها ثم نظرت إليه قائلةً: «سيبك أنت، تصدق وحشتني ووحشتني المناكفة معاك».

شعر طارق بأن داخله يكاد يحترق من اللهيب الذي أخذ يتعالى داخله، وشعر بأنه قد وصل إلى مرحلة لو لم يتدارك نفسه عندها فسيهدم كل ما قطع على نفسه من عهود التوبة والفراق، فصاح

بعصبيةٍ حملت كل ما بداخله من انفعال: «بقولك إيه يا روان أنا جاي هنا عشان أخلص شغل مش أتسامر في كلام فاضي ومواضيع عدى عليها سنين».

ثم نهض منهيًا الحوار بلهجة جافة: «فين الأستاذ اللي دخلني هنا وقالي هتقابل صاحب المجموعة؟».

كان يوليها ظهره ويهم بالتحرك تجاه باب الخروج لولا أن جاءه صوتها يحمل كل مرارة الدنيا وهي تقول بنبرة حملت كثير من الشجن: «أنا صاحبة مجموعة (G.SH.M) يا طارق».

***

رَشف طارق من كوب الشاي الذي أمامه وهو يستمع إلى روان وهي تروي له كل تفاصيل حياتها في السنوات المنصرمة، حتى وصلت إلى خبر زواجها من صاحب مجموعة، فلاحظ الارتجافة الخفيفة التي اعترت شفتها السفلى والدموع المحتبسة التي احتقنت بها عينيها وهي تروي له: «ولك أن تتخيل الحياة التي عشتها على مدار السنوات السابقة، كنت في الخامسة والعشرين من عمري متزوجة من شيخ هَرِم يتجاوز السبعين، أي بؤس وشقاء عشت فيه على مدار تلك السنوات، لقد دفنوا مشاعري الشابة المتعطشة للحياة في قبو رطب متهالك من الشيخوخة والهِرم.

جفَّ رحيق زهوري المتفتحة وسط أشواك صباره المتحجر العتيق، كُنت أحاول صادقة أن أتعايش مع واقعي الأليم، فتوأد

كل محاولاتي اليائسة، أقبع داخل كهفي مجردة من كل أمل أو رغبة في الحياة، أُجاهد كي أستنشق بعض عبير حريتي المسلوبة فيوصد أمامي ألف باب وباب.

كانت القيود تزيد من حولي كل يوم، تفرض عليّ طريقة حياة تقتل داخلي كل رغبة في الحياة، كان زوجي يُدرك جيدًا الفروق الشاسعة بين عالمينا، يعلم أنني أعيش في زمني ولحظتي بينما هو آت من زمنٍ ماضٍ ولحظةٍ مندثرة، يلاحظ النظرات المتطفلة التي تُلاحق وجودنا أينما كنا.

نظرات مُستهجنة مليئة بالتعجب من أنَّ تلك الزهرة النضرة تُروى بماءٍ آسن جفَّ نبعه وانعدم رواءه، ونظرة ممتعضة متأففة كمَن شاهد باقة زهور نادرة ملقاة وسط كومة من القمامة، لوحة فنية رائعة الجمال على جدار متهالك تساقط طلاؤه.

كان التباين الكبير بين شبابي وكهولته، يجلي المشهد فيزيد القبح قبحًا والجمال جمالًا، كان وجودنا معًا يُحدث ما كان يتكلم عنه مدرس اللغة العربية قديمًا حين يتكلم عن التضاد الذي يبرز المعنى ويوضحه.

كل ذلك كان زوجي يدركه جيدًا، ولكنه يتجاهله بمشاعره المتحجرة، مع الوقت بدأ تأففه وملله من اللعبة الجديدة التي اقتناها وشعر لوهلة أنه تسرع في امتلاكها، ولكن نفسه الشحيحة أبت عليه التفريط فيها.

انطلقت قيوده تُكبلني بأوامر صارمة تلاحقني، سُجِنتُ داخل مملكته وقُيّدت حريتي بألف جدارٍ وجدار، إذا حاولتُ تجاوز حدودي المرسومة من حولي عوقبتُ بألف قرارٍ وقرار، صار وجودي معه في الخارج محرمًا، مُنعتُ من كل أعمالي واهتماماتي، عُزِلتُ عن عالمي ومجتمعي، قُطِعتْ كل صِلة لي بالعالَم الخارجي، وضاعتْ حياتي في الانتظار.

انتظار الزوج كل ليلة من أجل لقاء عابر جاف رتيب خالي من أي حرارة، كنتُ ألمح نظرات العاملين بالقصر إليّ يملؤها الإشفاق والسخرية والفضول فأتوارى من كل ذلك بغرفتي.

صارت علاقتي وطيدة بالأثاث والفَرش، تكوّن بيني وبينها حوار واعتر افات وأسرار، تمر بنا الأيام والشهور فيعمل معولها بالكون مفعوله ويتوقف عندي أنا، أظل على تفردي وجمودي أُر اقب التغيرات من حولي في صمتٍ و انعدام إرادة.

اثنا عشر عامًا مرتْ بي على تلك الحال، أحببت فيها الموت وناجيته أن يخلصني مما أنا فيه، تلهفت للقائه كما لو كان حبيب، بل هو حقًا كان حبيب، ولِمَا لا وهو سيخلصني من أحز اني وجنوني، سينهي عذابي وآلامي.

ناجيته بإخلاص بمحاولتين صادقتين للانتحار، تارة بامتناعي لأيامٍ عن الطعام والشراب، وتارة أخرى بإفراطي في الشراب حتى أدمنت الكحوليات بأنواعها، كانت أمتع لحظاتي حين أشرب فأغيب عن الوعي، أغيب عن الكون وعن نفسي، حينها فقط أتذكرك، أذهب

إلى زمن كان لي فيه قلبًا يعشق ويحب.

وأخيرًا استجاب الموت لتوسلاتي وقَبِل ندائي و أناتي، ولكنه كان مراوغًا كما الحياة، فجاءني الخلاص ليس بموتي ولكن بموت جودت زوجي».

أنهتْ روان سرد ذكرياتها على مسامع طارق، ثم نظرتْ في عينيه وهي تميل بجزعها ورأسها ناحيته: «انت مش متخيل مقدار سعادتي بظهورك في حياتي النهارده».

وتفاجأ طارق بيدها تلامس يده وهي تقترب منه أكثروتقول بلهفة: «مهما اتكلمت مفيش كلام يقدريوصف ليك مدى اشتياقي واحتياجي لوجودك جنبي وخصوصًا في الفترة دي من حياتي، أنت مش متخيل أنا بواجه إيه لوحدي الأيام دي».

فور أن أنهتْ عبارتها السابقة انفتح باب المكتب بعنف وظهر على أعتابه رجل في أو ائل الأربعينات ممشوق القوام عريض المنكبين أبيض البشرة شعره الأسود الفاحم مُصَفف بعناية ناحية اليمين، يرتدي بدلة زرقاء داكنة وحذاء أسود إيطالي.

يهرول خلفه عدد من الحراس الشخصيين، وطابور من الرجال والسيدات بينهم أكثر من شخص أجنبي، يمسكون جميعًا بأيديهم حقائب وتبدو على وجوههم أمارات الجدية والترقب لكل ما يتفوه به الرجل الذي يحيطون به.

وفي خطوات سريعة و اثقة توجه إلى خلف المكتب الكبير، أطل من عينيه السوداوين غضب بالغ وهو يشير بإصبعه إلى روان: «مين سمح للبنت دي بدخول مكتبي؟».

نهضت روان وهي تقول بتحفزٍ: «أوعى تنسى يا مراد إن البنت دي تبقى وريثه زيك بالظبط في المكتب والمجموعة كلها».

قال مراد موجهًا كلامه إلى المحيطين به متعمدًا عدم توجيه الخطاب إلى روان: «من فضلكم أي حد يتطوع ويفهمها إن في دلوقتي محكمة بتبحث مشكلتها، ولحد ما المحكمة تحدد موقفها ملهاش أي حق في أي حاجة هنا».

ثم أشار إلى الحراس المصاحبين له قائلًا: «إرموا الزبالة دي بره مكتبي».

تحرك الحراس تجاه روان وطارق الذي وقف حائلًا بينهما وهو يقول بصوتٍ قوي النبرات: «أقف مكانك يا بغل أنت وهو».

ثم وجه كلامه إلى مراد قائلًا: «مراد بيه يبدو إن في سوء تفاهم، أنا طارق الجارم مأمور الضرائب».

رد عليه مراد ببرود: «وإيه علاقة الكلام ده بوجودك هنا في مكتبي؟ على العموم كلامي مش معاك كلامي مع رؤساءك بس الكلام ده مش وقته».

حاولتْ روان أن تدافع عن طارق فقالتْ بصوتٍ غاضبٍ: «اسمع يا مراد، أنت لازم تفهم وتراعي إني كنت مرات أبوك ومن حقي.

قاطعها بضحكة ساخرة وهو يقول: «حقك! لمَّا الواحدة ترفع رجليها عشان شوية فلوس أو سلطة يبقى زيها زي العاهرات الو اقفين على الأرصفة».

كان كلامه جارح ومهين مما جعل روان لا تشعر بنفسها وهي تتحرك تجاه مراد محاولة صفعه وهي تصيح: «أنت حيوان وحقير وسافل».

حال الحراس الشخصيون دون وصولها إليه، وإثر إشارة من مراد إليهم أمسكها أحد الحراس بقوة وجذبها قسرًا إلى الخارج لولا تدخل طارق وهو يقول: «لحظة واحدة، بصرف النظر عن اللي بينكم دي مش طريقة تعاملوا بيها واحدة ست».

وحاول أن يخلصها من يد الحارس الذي دفعه بقوة في صدره فمزق جزءًا من قميصه، فما كان من طارق إلَّا أن أطلق رأسه في وجه الحارس الذي تراجع للخلف من عنف الضربة، فتحرك باقي الحراس لمؤازرة رفيقهم في حين وقف طارق في مواجهتهم متحفزًا، وهو يضع روان خلفه ليحميها، واحتدم الموقف لولا صيحة مراد النهادره: «كفاية كده، أنتوا فاكرين نفسكم فين، اطلعوا كلكم بره مكتبي».

تبادل طارق نظرة متحدية مع الحراس المواجهين له ثم تحرك للخلف وهو يجذب روان من يدها إلى خارج المكتب، ساد الصمت

للحظات ثم وجَّه مراد كلامه إلى أحد المحيطين به قائلًا: «عاوز قدامي فورًا ملف كامل عن الولد ده من ساعة ما وصل الدنيا لحد النهاردة».

***

في مرأب السيارات الخاص بالمجموعة، جلست روان داخل سيارتها وهي تفتح بلهفة حقيبة الإسعافات الموجودة بعربتها، أخذت تضمد الجرح البسيط بجبهة طارق، وقد تجلى على وجهها علامات القلق واللوعة، واعترت يدها رجفة خفيفة من شدة اضطرابها، وعبَّر صوتها عن كل ذلك وهي تقول: «أنا السبب في كل اللي حصل، أنا اللي دخلتك في مشاكلي، و أنا اللي ما صدقت لقيتك وعرفت طريقك بعد السنين دي كلها أعمل فيك كده؟!».

كانت تتكلم بهيستريا وتميل على طارق وهي تمرر قطعة القطن على جبينه، وشعرها الذهبي المسترسل يلامس وجهه، وعطرها النفاذ يقتحم أنفه ويداعب مشاعره، وقد شعر بجفاف عارم يسيطر على حلقه، ويمنع صوته من الخروج، فابتلع لعابه بصوتٍ مسموع تحركت له تفاحة أدم المتضخمة بحنجرته، فأزاح يدها بعيدًا عنه وهو يقول: «الموضوع مش مستاهل منك كل اللي أنتِ عملاه ده، مفيش لزوم تلومي نفسك، أي حد في مكاني كان عمل اللي عملته ويمكن أكتر».

نهرته روان بصيحةٍ محذرة: «بلاش حركة لازم نغطي الجرح الأول عشان مش يتلوث».

فعاودتْ الاقتراب منه وهي تضع لاصق طبي على جبينه فأزاحها ثانيةً وهو يقول بضيقٍ: «يا حاجة اهمدي بقى الله لا يسيئك، أنا بخير الحمد لله، المهم اطلعي بسرعة من أم الشركة دي عشان أطمئن إنك بخير وإن مفيش حد هيتعرض ليكي».

أدارت روان محرك سيارتها وانطلقت بها إلى خارج المجموعة حتى وصلت إلى بداية العمران، فاستوقفها طارق حتى يركب مواصلة أخرى يذهب بها إلى بيته، لكنها أصرت ألَّا تتركه حتى تشتري له ملابس غير التي تمزقت وقت المشاجرة.

نظر طارق لقميصه المُمزق ولروان التي تحركت بسيارتها داخل شوارع المدينة في سرعة ومهارة وهو يتمتم داعيًا أن يمر هذا اليوم على خير.

ولمدة ساعة كاملة ارتدى فيها طارق أكثر من عشر قمصان ومارست خلالها روان كل مهاراتها التسويقية حتى انتقت له الأفضل، ثم أخرجت كارت الائتمان الخاص بها وهي تتقدم للحساب على ثمن القميص إلَّا أنَّ طارق استوقفها بنظرات غاضبة مطلة من عينيه، فأحجمت روان وهي تقول بخضوع مثير: «حاضر حاضر أصل أنا عارفة البصة دي والعِرق الصعيدي لمَّا يطلع أنا مش باقدر عليه».

فتقدم طارق لدفع ثمن القميص وعندما علم سعره والذي يكاد يعادل نصف راتبه قال متمتمًا: «الله يخرب بيتك يا روان وبيت اليوم اللي شوفتك فيه وبيت شركتكم كلها».

دنت منه روان وهي تقول: «أنت بتقول حاجة يا حبيبي».

نظر لها طارق بغيظٍ شديد حاول أن يخفيه بابتسامة مصطنعة من جانب فمه: «بشكرك والله على ذوقك العالي وبصراحة المكان جميل وأسعاره هايلة جدًا».

***

–5–

لا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب،
ولا خير في قلب يخفق بغير حب!
–مصطفى صادق الرافعي–

فتح طارق باب شقته وأطل برأسه من فرجة الباب فطالعه الهدوء والسكون يُخيم على الشقة، حرك عينيه يقيس المسافة بين باب الشقة وباب حجرة نومه، ثم دخل وأغلق الباب خلفه بحرصٍ شديد، تحرك على أطراف أصابعه حتى وصل إلى حجرة نومه وهمَّ بدخولها.

– بابا حبيبي أنت كيت من السغل؟

تسمر طارق مكانه إثر نداء ريتاج ابنته ذات الأربع سنوات تقول بلهجتها التي تُحول الشين إلى سين، حاول أن يهرع من أمامها ويفتح باب حجرته لكن صوت ابنته المرتفع سمره مكانه من جديد: «ماما ماما بابا كيه من الشغل».

أسرع يحمل ابنته في جزعٍ محاولًا تهدئتها، لكن صوت زوجته التي وصلت منذ ثلاث ساعات من عملها بعيادتها البيطرية القريبة من مسكنها والتي أقبلتْ من المطبخ قلقة من تأخر زوجها عن موعده المعتاد وهي ترتدي مريلة غسيل الأطباق تسأله عن سبب تأخره فأجابها طارق متعللًا بضغوط العمل، لكن جيهان عادت تسأله من جديد: «طيب إيه يا حبيبي الشنطة اللي في إيدك دي؟».

زفر طارق بضيق وهو يقول ملتفتًا لها: «أنا مش فاهم في إيه هو تحقيق؟».

لم تعبأ جيهان باعتراضه و اقتربت منه وهي تقول: «إيه ده ألف مبروك يا حبيبي أنت اشتريت قميص جديد؟».

ثم استطردتْ: «إيه ده وكمان كر افتة جديدة!».

قالتها وهي تتحسس الكر افتة والقميص بيدها المليئة ببقايا الصابون التي علقتْ بيدها من غسيل الأطباق، أزاح طارق يدها متبرمًا، فعادت تسأله عن ما حدث لقميصه القديم، ثم سحبتْ الشنطة من يده فتركها مستسلمًا في صمتٍ ففتحتها وأخرجت القميص القديم الممزق سألته بقلقٍ: «إيه اللي قطع القميص كده يا طارق؟».

ثم تطلعتْ إلى وجهه بمزيد من القلق: «آه».

صاح طارق متألمًا عندما نزعت جيهان اللاصق الطبي من على جبينه بشدة، فظهر الجرح الذي كان تحته، فأخذت تتفحصه بعينها وهمتْ بقول شيء لولا أن قاطعها صوت ابنهم أدهم ذو الأحد عشر عامًا وقد أتى من حجرته قائلًا: «يا ماما الأكل خلص ولا لسه؟ أنا جعان».

جيهان: «اصبر يا حبيبي مفيش أكل غير لمَّا أطمئن على بابا الأول»... قالتها وهي تسحب طارق من يده وتدخل به إلى داخل حجرتهما وتغلق الباب خلفهما.

وفي داخل الحُجرة أجلست جيهان طارق ووقفت أمامه قائلة: «إيه اللي حصل؟ احكيلي يا حبيبي أنا سمعاك».

طارق: «مفيش حاجة، مشكلة صغيرة في الشغل و اتحلت خلاص».

جيهان بلكنة صعيدية كثيرًا ما كانت تَغلب على حديثها حين يتملكها الغضب: «بقول لك إيه يا بوي كلمني عِدل وبلاها حوارات فارغة، أنت شغال من 15 سنة عمرك ما دخلت ليا البيت مبطوح ولا قميصك مقطع قبل كده».

حين سمع طارق لكنة زوجته الصعيدية، قرر أن يصارحها ببعض الحقيقة، فروى لها أنه كان يفحص مستندات أحد الشركات لكن صاحب الشركة رفض أن يتعاون معه، وحين وجده مصممًا على إتمام عمله بطريقة ترضي ضميره قام بتحريض بعض البلطجية ممن يعملون عنده لكنهم جميعًا تراجعوا أمامه عندما أظهر لهم طارق العين الحمراء.

فعقبتْ جيهان وهي تتطلع إلى جرح جبهته: «لا ما هو واضح».

ثم تركته وهمتْ بالخروج من الحُجرة، فنهض طارق مسرعًا وأمسك بيدها وأجلسها على حافة السرير وهو يقول لها: «يا حبيبتي بطلي التقفيل الصعيدي ده واسمعيني زي الناس العاقلين».

نظرتْ إليه قائلةً: مش لمَّا تكلمني أنت الأول زي الناس العاقلين، أنت بتقول مشادات يا طارق مش تقطيع هدوم، طيب المَرة دي عدتْ

على خير وربنا ستر، لكن في احتمال لا قدر الله إن الموضوع يتطور لأكتر من كده، وكل ده على إيه ما الحمد لله إحنا عندنا اللي يكفينا وأكتر، شغلك ده مجرد تقضية وقت، أقعد راعي أملاكنا وسيبك من كل وجع القلب ده».

طارق بضيقٍ: «سبق واتكلمنا في الموضوع ده زمان يا جيهان، مش هاقعد في البيت عواطلي عشان وارث شوية أطيان، ثم إن جدنا عبد الرحمن ربنا يبارك في عمره قاعد هناك ومتابع حقوقنا وبيبعت لنا الإيراد آخر كل سنة.

ثم إن ده شغلي وشغل أبويا الله يرحمه وأنا وكل اللي شغالين فيه خلاص اتعودنا على ظروفه دي، ربنا يسلم سيبيها على الله، ممكن بقى تحطي الأكل عشان أنا خلاص هموت من الجوع».

ابتسمتْ جيهان برضا وهي تقول: «ألف بعد الشر عليك أوعى تقول كده تاني، عشر دقايق والأكل يكون جاهز على السُفرة يا حبيبي».

***

أخيرًا وصل طارق إلى وجهته، لأكثر من خمسة عشر عامًا لم يتخلف طارق عن تلك الزيارة الأسبوعية، يومان من كل أسبوع، يخرج من بيته بالقاهرة الجديدة بعد أداء صلاة المغرب مباشرةً ليصل قبل أذان العِشاء أو نحو ذلك.

ترجل من سيارته وأخذ يتطلع إلى معالِم المكان، وقد ارتسمتْ

على شفتيه ابتسامة رضا وسَكينة، أخذ نفسًا عميقًا ملأ صدره بعبق المكان ورائحته الطيبة وقال بخشوعٍ: «السلام عليكم آل بيت النبي، السلام عليكِ يا كريمة يا بنت الأكرمين، السلام عليكِ يا بنت بنت سيدنا النبي».

وتطلع إلى الزاوية التي أمامه بانشراح صدر وأسرع الخطى نحو شيخه فحياه وقبَّل يده في محبةٍ وشوقٍ ثم أخذ مكانه لصلاة العِشاء.

وبعد الصلاة وطوال فترة الدرس والذِكر لم يغب عن عيني طارق نظرات شيخه له، لقد كان شيخه يوله مكانة رفيعة، لِمَا بينهما من المحبة في الله ورسوله وآل بيته، وتوطدتْ على مدار الأعوام، فقد تأثر طارق بالشيخ كثيرًا و انبهر بشخصه وشخصيته، فقد كان الشيخ ذا علم غزير ومنهج مستنير، متواضع النفس غير مزهو بمكانته بين أحبابه ومريديه.

لم يُعرف عنه أنه من الدراويش أو يدعي يومًا أنه من أصحاب الحظوة أو الوصول والاتصال، لكن ما كان جليًا لكل ذي عقل أن الشيخ يملك فراسة ونجابة ونظرة ثاقبة في البشر وأحوالهم، فما كان يُستشار في مسألةٍ إلَّا ويشير بالأصح والأنفع.

وهو ما احتار الناس فيه، هل هذا لرجاحة عقله وخبرة اكتسبها على مدار الأعوام من مخالطة الناس ومشكلاتهم؟ أم لأنه رجل مبروك يُكشف عنه الحجب والأسرار؟ وهو فوق ذلك بشوش الوجه يملك نفسًا ذكية تفهم الدعابة وتستخدمها لبلوغ المقصد و إيصال المعنى.

كما أنَّ طارق لم ينسَ الدور الكبير الذي لعبه معه بعد وفاة أبيه ومن بعده أمه بعامين، فقد شدَّ من أزره و أنس وحشة نفسه بعد فر اقهما، وكان لدعائه له أشد الأثر في بث الطمأنينة في قلبه، وهما على الرغم من فارق السن البين بينهما إلَّا أنهما كانا خليلين وفيين يُكن كل منهما للآخر أنبل المشاعر.

لذا لم تَفُتْ على طارق نظرات شيخه إليه طوال الأُمسية، وزادتْ حيرته في نهايتها حين فرغ الشيخ من دعائه وأشار له بيده أن يقترب، ثم وضع يده على صدر طارق وقال: «اعلم أكرمك الله أنَّ الوصول لا يكون إلَّا بالرضا، ولن تحوز الرضا إلَّا بالقبول، وما يحب الله عبدًا إلَّا ابتلاه، فإن صبر فكان خيرًا له، فاصبر يا ولدي فقد جاء أوان الامتحان، اصبر واحتسب».

***

–6–

نحن نحب الماضي لأنه ذهب
ولو عاد لكرهناه!
–مثل فرنسي–

كان طارق جالسًا أمام شاشة التلفاز يتابع إحدى المباريات حين أضاءت شاشة تليفونه المحمول معلنة تلقيه لمكالمة برقم غير مسجل، فضغط على زر الرد.

– ألو ازيك يا طارق؟

التقطتْ أُذنه صوت أنثوي مألوف، فنهض إلى الشُرفة المجاورة وأغلق بابها خلفه وهو يرتجف من القلق ومن تيار الهواء البارد الذي لفحه على حين غره لكنه تمالك نفسه وهو يتابع متسائلًا: «أنتِ جبتي رقمي منين يا روان؟».

روان: «الصبح لمَّا كنت بتقيس القميص سيبت تليفونك ومفاتيحك معايا، فسجلت رقمي على تليفونك ورنيت منه على تليفوني وسجلت رقمك عندي».

ثم تابعت بجدية: «أنا النهاردة ماكنتش مصدقة نفسي إني شيفاك قدامي وبختارلك هدومك على ذوقي، فاكرزي زمان يا طارق».

طارق: «زمان ده فات عليه أكتر من 15 سنة، أنا زمان كنت حاجة ودلوقتي بقيت حاجة تانية خالص، حتى سننا مابقاش يسمح بحاجات كتير زى زمان».

روان: «اتكلم عن نفسك يا حبيبي أنت اللي باين عليك السن بالبطيخة اللي طلعت لك في بطنك دي، أما أنا زي ما أنا، ولَّا أنت شايف حاجة غير كده؟».

طاف بذهن طارق مشهدها في الصباح وهي تحاول تضميد جرحه في سيارتها وقاوم رغبته المُلحة في أن يخبرها أنها أصبحت أجمل مما كانت، فقد كانت بالأمس مجرد فتاة صغيرة، طالبة جامعية، أما الآن فهي امرأة مكتملة الجمال والأنوثة، ولكنه ملك زمام نفسه وهو يقول: «أنا مش شايف حاجة غير المسئوليات اللي ورايا ومراتي وولادي اللي مسئولين مني».

روان بخفوت: «آه وطبعًا أنا بره المسئوليات دي».

طارق: «افهميني يا روان، اقفلي الصفحة دي من حياتك و ابدئي من جديد، إنسي الماضي وكل ذكرياتك المؤلمة اللي فيه، بدل ما تخلي الماضي اللي دمر حياتك زمان يكمل معاكي ويدمر كمان مستقبلك».

صمتت روان قليلًا ثم قالت: «أنت عارف أنا ممكن أعمل كده في حالة واحدة بس، إني أبقى متأكدة إن الأيام اللي جاية من حياتي كلها تكون معاك، أنت لوحدك يا طارق اللي تقدر تعوضني عن كل

اللي راح».

طارق بحده: «أنتِ مجنونة يا روان، بقولك أنا متجوز وبحب مراتي وأولادي همَ حياتي، أنا ماضي وانتهى بالنسبة ليكي يا روان حاولي تفهمي، أنا ماضي وانتهى».

وأغلق التليفون بغضبٍ، وعلى الجهة الأخرى قذفت روان التليفون من يدها فتهشم بصوتٍ مسموع.

أخذت روان تتقلب في فراشها وقد جفاها النوم، وكيف ينام من كان مشغول البال ويختطفه كل لحظة ألف سؤال وسؤال؟

كيف نسيها ونسى كل ما كان بينهما؟ كانت تسمع دائمًا عِبارة إنَّ البعد جفا، فهل هذا تأثير أعوام من الفراق حالت بينهما وشتتت شملهما؟

وكيف يكون تأثير الأيام عليه دون تأثيرها عليها؟ إنها ما زالتْ تحيا على ذكرياتهما كأنها حدثت بالأمس، وماذا كانت في استطاعتها أن تفعله أكثر مما قامت به، لكنه هو الذي اختفى وآثر البعاد واستعذب الحياة دونها.

هو الذي تركها وحيدة تتقاذفها أيدي العابثين ورغبات الطامعين، مطية لكل صاحب مآرب يستخدمها لتحقيق مآربه، كيف يفعل بها هذا وهي التي لم تعشقْ غيره ولم يسكنْ قلبها أحد سواه؟

حتى في أحلك لحظات حياتها الزوجية قتامةً وإظلامًا حين راودتها أفكار الثأر لنفسها وأن ترد الإهانة لزوجها على كل أفعاله في حقها فتستجيب لدعوات الأعين الملاحقة لها أينما ذهبت، لم يَحُل بينها وبين الإقدام على ذلك إلَّا حبها الراسخ في قلبها لطارق.

وماذا تملك هي غير قلبها، حافظتْ عليه نقيًا وفيًا بعدما أصبح جسدها عربون محبة لتذليل العقبات، صانت قلبها عن النسيان وأوصدت أقفاله على ما به من ذكريات حبيبة تجترها وقت الأحزان وما أكثرها في حياتها.

في حين أنَّ حبيبها لم يصُن عهدها وخان ذكراها، فرَّ منها كما لو كانت حاملة لمرض معدي أو ميكروب خطير، تركها وحيدة دون شعور برحمة أو وخزه من حنين... أحست بالنار تستعر في صدرها، نهضت من فراشها وفتحت الثلاجة الموضوعة بركن حجرتها والتقطت منها زجاجة ويسكي اسكتلندي معتقة جرعت منها جرعة كبيرة، ثم جلست وقد شعرت بحاجتها للمزيد للقضاء على توترها وغضبها المتزايد.

ولم تكدْ تمر الساعة حتى أتت على الزجاجة بأكملها، حاولت العودة لفراشها من جديد إلَّا أنها لم تقوَ على النهوض من مكانها فارتمتْ على مقعدها ونامت كما هي حتى الصباح.

***

-7-

أحيانًا أصحو في الصباح فيخيفني كل شيء..
أصوات الشوارع، جدران البيت، صوت الراديو،
ضحكات الشغالات على السلم،
كل الأصوات وكل الألوان،
وكل الروائح.. أشعر أن كل شيء فيه خطر!
-بهاء طاهر-

11 ديسمبر.

حاول طارق أن يتجاوز هذا الشعور بالانقباض الذي لازمه منذ استيقظ هذا الصباح، وكان من المنطقي له ألَّا يذهب إلى مقر المجموعة اليوم، بعد المشادة التي حدثت معه بالأمس، فآثر أن يذهب إلى مقر المصلحة، فيقدم مذكرة بالو اقعة يتهم فيها مسئولي المجموعة بالاعتداء عليه، وحتى يتم بت الأمر -إن كان سيستمر في الفحص الضريبي للمجموعة أم سيتم ترشيح مأمور أخر مكانه- يستغل اليوم بمكتبه في ترتيب أور اقه ومراجعة بياناته.

وصل إلى مكتبه وانهمك في عمله حتى نسى كتابة المذكرة التي كان ينتوي تقديمها، وفي تمام الساعة العاشرة استدعاه مديره، وحين دلف إلى الحُجرة كان أول ما طالعه وجه مديره المكفهر، بينما زميله أمجد جالسًا أمامه مطرقًا برأسه إلى الأرض.

ألقى عليهما التحية فرداها عليه باقتضاب، ثم نهض أمجد مستأذنًا للخروج ولم يفُت طارق نظرة الارتباك البادية على وجهه.

وما إن أغلق الباب حتى سأله مديره عمّا حدث معه بالأمس في المجموعة، بدا التعجب للحظة على وجه طارق من السرعة التي انتقلت بها الأخبار، لكنه تماسك وهو يحكي لرئيسه كل تفاصيل مشاجرة الأمس، وما أن انتهى حتى اندفع مديره يعنفه بغضبٍ عن تدخله بمثل هذا الشكل الهمجي في أمورلا تتعلق بالعمل.

اعترض طارق وبدأت تعلوه هو الأخر نبرة صوت بأنه ليس من الرجولة أو المروءة أن تُمتهن كرامة سيدة ويُعتدى عليها أمامه وهو يقف متفرجًا، فوجئ برئيسه يُخرج من أمامه ورقة ويُلقيها إليه وهو يخبره بعصبية أن رئيس المصلحة استدعاه وكان في غاية الانفعال، و أبلغه أنَّ ما حدث بالأمس جعله في وضع حرج اضطر معه أن يؤشر على قرار نقل طارق من المصلحة كلها.

كان طارق في حالة صدمة تُلجم لسانه وتُسيطر على تفكيره، حاول مديره تخفيف الأمر عليه بعبارات مواسية فحواها أن الأيام دواره ولا أحد يخلد بمكانه، ووعده أنه في أول تغيير سيعيده لمكانه لأنه لا يستطيع أن يستغنى عنه وعن مجهوده وكفاءته.

لكن الرجل فوجئ بطارق يقف منتفضًا بغضبٍ وهو يقبض على قرار نقله بيده ويندفع من مكتبه ويصيح بغضبٍ هادر مهددًا رئيس المصلحة، فهو لا يعمل في عزبة أبيه.

هرول رئيسه خلفه محاولًا تهدئته، وكان زميله أمجد ينتظره خارج المكتب، وكان قد علم بقرار النقل من قبل، فوقف لمواساته فور خروجه وتوديعه، لكنه فوجئ بثورة طارق العارمة.

وعندما وجد صياحه بتلك الكلمات أسرع يضع يده على فم طارق حتى يمنعه من الاسترسال في تهديداته حتى لا يتفوه بكلمات قد تؤخذ ضده في حالة وصول الأمر للتحقيق، لكن طارق أزاح يده وهو يصيح أمام المصلحة كلها: «إهدى، إيه يا أمجد، بقول لك نقلوني، عارف ليه؟ عشان شوية عالَم ولاد ستين كلب حرامية واكلين البلد في كرشهم، بس الواضح إنهم بيدفعوا كويس عشان كده كلامهم بيمشي على الكل وبيقول لك مفيش حد فوق القانون، قال قانون قال يا أخي دي عالم بنت.»

للمرة الثانية يضع أمجد يده على فم طارق وهو يقول: «يا طارق اسكت بقى عشان خاطري، وأنا بقول لك أهو والعدرا الشريفة هنلاقي للمشكلة دي حل، بس اخرج معايا دلوقتي ونتكلم بالعقل».

وجذب طارق من ذراعه ليحثه على الخروج معه خارج المصلحة كلها، بعيدًا عن تجمهر الموظفين، ونظراتهم المتسائلة المتعجبة، والمُشفقة لكل ما يحدث أمامهم.

***

قرعت أُذنا روان خطوات ثقيلة مهرولة وصياح متعالي ففتحت أجفانها بصعوبة وهي تشعر بصداع شديد يضرب مقدمة رأسها، قبل

أن تستوعب مكانها والموجودات من حولها انفتح باب حجرتها على مصراعيه بعنفٍ، و اندفع مجموعة من الحرس الشخصيين ضخام الجثة، تدفق خلفهم رهط قليل من خدم القصر الفضوليين الذين حرصوا على ألَّا يفوتهم شيء من المشهد المثير.

وبيدين مرتجفتين من الفزع أسرعتْ روان تهرع إلى فراشها وتسحب غطاءه وتلفه حول كتفيها وتدليه على جسدها لتداري به قميص نومها القصير الأبيض الشفاف الذي ترتديه، وبصوتٍ لا يكاد يُسمع من شدة الخوف سألتهم عمّا يريدون، جاءها الجواب حين أفسح الو اقفين فرجة بينهم ليظهر مراد الذي أخذ يتطلع لها في برود وسماجة ثم التفت إلى الرجال المحيطين به وهو يشير لهم كي يشرعوا في تنفيذ أوامره.

لم تصدقْ روان نفسها وهي تُنزَع من فراشها وتُحمل بين أيدي الحراس كدمية صغيرة، أخذتْ تصرخ بتساؤلات فزعة ملتاعة ماذا ولماذا؟ وكيف يحدث لها كل ذلك؟ وحين لامست أيدي الحراس جسدها العاري إلَّا من غلالة نومها الرقيقة أطلقت لسانها تسبهم وتلعنهم.

صرختْ باسم مراد بصوتٍ متوسلٍ مستغيث لعلّها تستعطفه أو تستثير أي جزء ولو ضئيل من رجولته فيتراجع عن حماقته أو يتركها تخرج دون إهانة أو إهدار لكرامتها، لكنه نظر إليها بتشفٍ وهو يشعل سيجاره ونفث دخانه الكثيف وهو يتأمل المشهد بعينين يطل منهما شغف سيادي.

كان شعور الصدمة والذهول هو المسيطر على روان في ذلك الوقت، شُلَّ تفكيرها وعجز إدراكها عن استيعاب ما تمر به حتى أنها عجزت عن الصراخ من الألم وهي تتقاذفها الأيدي ورأسها يرتطم بحوائط وسلالم الدرج الذي تهوى عبره إلى خارج القصر.

هي التي كانت منذ لحظات سيدة القصر، تُطرد منه بتلك الطريقة المُخزية، هي التي كانت منذ لحظات تنام قريرة العين داخل غرفتها، تُلقى خارج الأسوار وعلى أسفلت الطريق.

ضمتْ يديها على صدرها تحاول أن تستر ما ظهر من جسدها، كان وقت الظهيرة وأشعة الشمس متدفقة لكنها شعرتْ بالبرد ينبعث من داخلها وينافس عيون الناظرين إليها في نهش جسدها، جسدها الذي لم تأبه له وهو ملقى وسط أتربة الطريق فقد كان الخزي الذي ألم بها هو ما يشغلها ويسيطر على تفكيرها.

عضتْ على شفتها السفلى في قهر وهي تحاول أن تتكئ على يديها محاولة النهوض فعجزت قدماها على حملها فسقطت من جديد، وانهمرت دموع عينيها ليس ألمًا ولكن قهرًا على حالها.

حَبَتْ على ساعديها حتى أدمتهما، وصلت لجزع شجرة صغيرة يقف بجوار أسوار القصر، تحاملت عليه حتى استطاعت الوقوف، ثم استترت خلفه وأخذت تحاول أن تزيل ما علق بجسدها من أتربة الطريق، وأخذت تراقب بوابه القصر من مكانها، فوجدت الحرس الذين اعتدوا عليها قد انصرفوا إلى الداخل ولم يبقَ إلَّا طاقم الأمن القديم.

كان من بينهم كهل تعرفه جيدًا وتعطف عليه من آنٍ لآخر بحسن المعاملة والمساعدات المادية...

أشارت إليه حتى انتبه لها، أخذ يتلفت حوله خشيةً أن يراه أحد، ثم أسرع يهرول لها، طلبت منه هاتفه المحمول، ارتبك في ذعرٍ ثم حسم أمره ومنحها إياه، تلقفته روان بسرعة وهي تضغط أزرار الرقم الوحيد العالق بذهنها في ذلك الوقت.

***

خرج طارق بصحبة أمجد من مبنى الضرائب، كان في غاية الانفعال وأمجد يحاول تهدئته بكلمات مطمئنة عن تحسن الأوضاع في المستقبل القريب حتى دوى رنين هاتف طارق فأجابه واستمع إلى صوت روان الباكي المستغيث وهي تروي له في عُجالة ما حدث لها، فأمرها ألَّا تتحرك من مكانها حتى يصل إليها، وانطلق يجري ويُلقي بنفسه داخل أول سيارة أجرة تمر به، تلاحقه نظرات أمجد المتعجبة.

***

اتسمت شوارع مصر الجديدة بالهدوء خاصةً في ذلك الوقت من اليوم قبيل عودة الموظفين من أعمالهم، وقف طارق يتطلع بتوجسٍ إلى مدخل العمارة التي بها شقة والديه المتوفيين.

أخذ يتابع كل شاردة وواردة وروان إلى جواره ترتجف من القلق والبرد على الرغم من جاكت بدلة طارق الذي وضعه على كتفها

حتى يقيها البرد ويستر ما بدا من كتفيها وذراعيها وصدرها، لكن ظلَّ مفعوله عاجزًا أمام قدميها المكشوفتين من أصابع قدميها وحتى قرابة خصرها بشبرين، مما جعل طارق يُصر على عدم صعودهما إلى العمارة سويًا حتى لا تُثير شكوك ساكني العمارة، واستشهد على حجته بسائق التاكسي الذي أقلهم وكان ينظر لهم طوال الطريق متشككًا حتى أخبره طارق أنها أخته وزوجها النذل طردها من بيتها بالملابس التي ترتديها... وحين وجدته روان مصرًا أخذتْ مفتاح الشقة وتحركت بخفة إلى مدخل العمارة حتى اختفت من أمام عيني طارق المتابعتين، فمضى بعدها إلى أحد المحال القريبة ليشتري منه بعض المعلبات والمتطلبات الأخرى التي قد تحتاجها ضيفته.

حمل الأكياس التي جمعها وصعد إلى الشقة مسرعًا، وما أن طرق باب الشقة حتى فتحته روان على الفور وقد بدا عليها الخوف والقلق، لاحظ طارق الظلام الدامس المطبق على الشقة فقال: «طبعًا لازم تموتي من الخوف، مش فاهم أنتِ مش منورة ليه نور الشقة؟».

روان: «أنا دوست على كل المفاتيح بس مش عارفة ليه مش بتنور؟».

طارق ساخرًا: «لا فالحة».

ثم ذهب إلى لوحة المفاتيح الرئيسية ورفعها فأضاءت أنوار الشقة فصفقت روان بيديها في سعادة، ثم لاحظت الأكياس التي بيده فساعدته بحملها وهي تسأله بفضول عن محتواها أجابها: «دي

حاجات بسيطة، معلش بقى أنتِ عارفة الشقة مقفولة من ساعة ما أبويا وأمي الله يرحمهم، وأختي كمان مسافرة مع جوزها في الخليج و أنا بَعَدي أطمن على الشقة كل فترة والتانية».

كان يتحدث وهو يفرغ الأكياس داخل الثلاجة بعد تشغيلها، ثم يمسك بكيس منهم ويشير لها قائلًا: «طبعًا انتِ أكيد محتاجة تاخدي دش عشان منظرك اللي أنتِ فيه ده على ما أكون أنا جهزت لك حاجة خفيفة تاكليها».

نظرت روان إلى هيئتها المزرية وقدميها الحافيتين المتسختين في خجلٍ ثم أطلتْ من عينيها نظرة شكر وهي تلتقط الكيس وتهرع إلى الحمام.

وضع طارق الطعام على منضدة المطبخ وجلس يحتسي كوب شاي ما زال يتصاعد البخار الساخن منه حين دخلت روان من باب المطبخ ووقفت تتطلع إليه وقد رفت على شفتيها ابتسامة مشرقة.

تطلع إليها طارق بدوره، كانت خصلات شعرها الذهبي والتي ما زالت تقطر بالماء منسابة على جسدها، ووجهها الأبيض المشرب بحمرة لا تدري أمن الخجل أم من مفعول بخار ماء الحمام الساخن، وعينيها الزرقاوين اللتان زال عنهما الإرهاق والقلق وحلَّ محلهما شقاوة تتقافز بعينيها أعادت إليه ذكريات أعوام بعيدة مضت، وعنقها الطويل المكشوف حتى منابت صدرها يشوب صفاءه قطرات من ماء نُثرت عليه كحبات اللؤلؤ، وجسدها الملفوف في قميص نومها الأبيض الشفاف فأفقدته قطرات الماء كل قدرة لديه

على الستر والإخفاء فصار مرآه صادقة لِما يحويه من أسرار خافيات وتفاصيل مبهجات.

كل هذا جعل حلق طارق يجف من الانفعال وشعر كأنه فقد قدرته على الكلام، فأشار لها يدعوها إلى الطعام، لاحظت روان نظراته وارتباكه فأخبرته معللة ارتدائها نفس الملابس التي أقبلت بها أنها لم تجد شيء بالداخل ترتديه.

ثم جلست بجواره إلى المائدة وهي تعتذر له عمَّا سببته له من تعب وقلق، أخذ طارق رشفة من الكوب الذي أمامه وهو يتحاشى النظر إليها ويجاوبها أنه لم يفعل سوى واجبه، ثم صمت قليلًا وتابع متسائلًا: «أنا بس كنت عاوز أفهم أنتِ ليه مش عاوزة تروحي لأبوكي مش المفروض إنه يكون معاكي في الظروف دي؟».

روان بضيقٍ: «لا مش المفروض لأنه هو السبب في كل اللي أنا فيه، أنا مش ممكن ألجأ له حتى ولو كان هو آخر واحد في الدنيا».

ثم تركت الطعام وهي تتابع بانفعال: «وعلى العموم لو كنت متضايق إني ورطك معايا ما تحملش هم أنا بس كلها كام ساعة أدبر فيها أموري وامشي من هنا على الليل بالكتير، وألف شكر ليك يا سيدي على وقفتك جنبي، وبعتذر ليك للمَرة التانية على إزعاجك».

طارق بجديه: «بطلي هبل يا روان، أنا مش ممكن أتخلى عنك أبدًا، كل الحكاية أنا بنصحك مش أكتر».

قال ذلك ثم نهض وهو يقول: «على العموم كل حاجة ممكن تحتاجيها عندك وفي عِدة تليفون محمول على الشاحن بره عشان لو احتاجتي أي حاجة اتصلي عليا فورًا».

روان وهي تقف بدورها: «يعنى إيه بقى الكلام ده، أنت عاوزتمشي وتسيبني هنا لوحدي؟».

طارق متعجبًا: «يعني أنتِ عوزاني أعمل لك إيه؟! أقعد أحرسك، على العموم كلها كام ساعة وأعدي عليكي عشان نتكلم في مشكلتك ونحاول نلاقي لها حل».

روان وهي تمد له يدها وتقول آمرةً: «طيب لو سمحت تليفونك أخذ الرقم اللي كلمتك منه من شوية».

أعطاها تليفونه محتجًا: «وده رقم مين ده كمان؟ بقولك إيه يا روان أنا مش عاوزحد يعرف مكانك هنا، أنا مقعدك على مسئ»

قاطعته روان بعدما سجلت الرقم الذي تريده وقالت له: «خلاص خلاص يا حبيبي، تليفونك زي ما هو مش ناقص منه حاجة».

ثم تابعت بجدية: «بس وحياتي عندك أوعى تتأخر عليا بالليل».

نظر لها طارق وهو يقول: «ربنا يسهل، المهم بس أحاول أجيب لك أي حاجة تلبسيها بدل الهدوم الخفيفة اللي ملهاش لازمة دي».

و انطلق فارًا من أمامها تشيعه ضحكاتها العابثة التي تُشع فتنة وغو اية.

–8–

ثقة العاطفة شهر،
وثقة العقل دهر!
–مثل عربي–

في أحد شوارع حدائق الزيتون المزدحمة اقتحمت ثلاث سيارات حديثة سوداء اللون أثارت مع غبارها تساؤلات المارة والقاطنين عن هوية صاحب الموكب ومكانته التي يشغلها، وقف الموكب الصاخب أمام إحدى العمارات القديمة نسبيًا ونزل منها مجموعة من الحرس الشخصيين أحاطوا بمدخل العمارة تبعتهما سيارتان من نفس الماركة واللون.

نزل من إحديهما مراد وتأمل المنطقة بتأففٍ شديد وهو يلقي نظرة اشمئزاز على العمارة التي أمامه، ثم دلف إليها يتقدمه أربعة من حراسه، صعدوا الدور الثاني فأشار مراد إلى أحد رجاله فأسرع يضغط ضغطًا متكررًا على جرس الباب، تبعه صياحًا أنثويًا حانقًا من داخل الشقة.

فُتح الباب وظهرت على عتبته شابة لم تتعدَ الثلاثين من عمرها، ينم وجهها عن عذوبة وجمال رغم خلوه من لمسات الزينة، وقفت الشابة مشدوهة تتأمل الرجال الواقفين أمامها، ثم تغلبت على انفعالاتها وهي تسألهم بتحفزٍ وصوتٍ حمل بعض الصرامة عن هويتهم وغايتهم.

خلع مراد نظارته الشمسية وهو يقول: «إزيك يا شاهيناز؟».

ثم تقدم بثقة إلى داخل الشقة، بدا على وجه شاهيناز أنها فوجئت بعض الشيء، لكنها سرعان ما تمالكت مشاعرها وأغلقت الباب في عنفٍ تاركة الحراس بالخارج و اقفين بتململ.

تأمل مراد شقتها الصغيرة و أثاثها البسيط ولم تَغب عن عينه لمسة الأناقة وتناسق الألوان للشقة ككل، ثم جلس على أول مقاعد الصالون المُذهب الذي يشغل ركن الصالة، ووضع ساقًا فوق الأخرى...

أخرج سيجار من جيب حلته وأشار لها قائلًا: «تعالي جنبي هنا خلينا نتكلم كلمتين مع بعض قبل ما المناضل جوزك يشرف».

شاهيناز: «لو سمحت مالكش دعوة بجوزي».

ثم جلست أمامه وهي تتذكر المَرة الأخيرة التي رأته بها في المقابر يوم توفيت أمها منذ سنوات عِدة، بعدها انقطعت أخباره ولم يُفكر في السؤال عنها طوال تلك السنوات، ما الذي ذكَّره بها الآن؟

أطل من عينيها السؤال يؤرقها ويجعل القلق ينهش صدرها، وهمت بأن تلقيه بلسانها لولا أن نهض مراد وسار نحوها و انحنى يمسك وجنتيها براحتيه وهو يقول بصوتٍ متهدجٍ ناظرًا إلى عينيها العسليتين: «هو لازم يكون فيه سبب عشان الأخ يسأل عن أخته؟».

رمشتْ أهدابها قليلًا مرتبكة أمام مبادرته المباغتة، فأخذت

تتطلع إليه بدورها بانفعال مماثل كادت عينيها أن تزرف الدموع تأثرًا، لولا أن وصلت أذانها صوت طفلتها ذات العامين تبكي في غرفتها، فنهضت مسرعةً لتطمئن عليها، ثم عادت تحمل الصغيرة بين ذراعيها، فتساءل مراد قائلًا: «دي فرح بنتك؟».

هزتْ شاهيناز رأسها بالإيجاب، فأسرع يطفئ السيجار ثم اقترب من الصغيرة وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة وأخذ يداعب يديها الرقيقتين والصغيرة تتطلع له في فضول فقال مبتهجًا: «عينيها فيها شبه كبير من عينيكي يا شاهي، زي ما تكون حتة منك و أنتِ صغيرة».

ارتسمت شبه ابتسامة على وجه شاهيناز سرعان ما اختفت وعاودها كدرها فسحبت طفلتها إلى أحضانها ولاذت بالصمت وهي تتطلع إليه بعينين يطل منهما القلق، فعاد مراد إلى مجلسه السابق وهو يقول في هدوء: «لو أنتِ كل اللي قلقك إنك تعرفي أنا جيت ليه؟ فاللي جابني النهاردة إني عاوز أرد لك حقك في تركة بابا».

تعجبتْ شاهيناز من كلماته فهو يعلم جيدًا أن أبيها تبرأ منها وحرمها من ثروته منذ أن أحبت خالد زميلها بالجامعة وقررت الزواج منه متحديةً إرادته، فقد كان يرى أن خالد ينتمي لعالَم وضيع لا يرقى لعالَمه الراقي، فهو من أسرة بسيطة تعيش على الكفاف، يعمل بالإجازات حتى يوفر مصاريف تعليمه.

وفوق كل هذا له ميول سياسية ثورية، على الرغم من أنه غير منتمي لأي أحزاب لإيمانه بحيادها وعدم مساهمتها في الحراك السياسي.

كانت أفكاره وآرائه لبرالية النزعة، بدأت المشكلة حين تقابل وشاهيناز فانبهرت بشخصيته وتابعته في كل الفاعليات السياسية والمظاهرات الطلابية، أصبحا عضوان رئيسيان في معظم المظاهرات المناهِضة للنظام، النظام الذي يُعتبر جودت الغامري أحد أعمدته.

وحين علم بالأمر كانت ثورته عارمة، ولم يستغرق منه الأمر أكثر من مكالمة تليفونية واحدة، اقتيد بعدها خالد إلى المعتقل و انقطعت أخباره... إلَّا أنَّ شاهيناز والتي لم تَكنْ على يقين تام من أنَّ أبيها هو المتسبب فيما حدث لخالد لكن شكوك وريبة ساورتها وجعلتها تشعر بالذنب تجاه أسرة خالد فجمعت أشيائها وذهبت لتقيم مع أسرته تحاول تعويضهم بعض الشيء عن غياب عائلهم.

لكنها وبعد بضعة أيام وجدت والد خالد يخبرها بأنهم لا يستطيعون تحمل وجودها بينهم بعد اليوم بعدما، فقد تلقى تهديدًا صريحًا من أحد أتباع والدها، اضطرت شاهيناز لتركهم وقد أضحت شكوكها يقين، أحست بأنها أصبحت كحامل وباء ينقل الخطر لكل من حوله، تيقنت من أنها لن تستطيع الهروب من دنيا جودت الغامري التي اكتشفت مدى ظلمها وظلامها وفسادها الضارب إلى الجذور.

كُبتت حريتها و انمحت إرادتها واسودت الدنيا أمام عينها، فكانت الصدمة التي تلقاها جودت الغامري ولم تَكنْ في حسبانه هي محاولة الانتحار التي أقدمت عليها ابنته الوحيدة و أقرب إنسانه له في الوجود.

لم تستطعْ قدماه على حمله وهو يهرول خلف السرير الر اقدة عليه حتى غرفة العمليات، أحس بانكسار لم يعتده في حياته كلها، وحين علم من الطبيب بتحسن حالتها وقبل أن تخرج من حجرة العمليات كان يصدر أوامره للإفراج عن خالد، لكن المرارة التي شعر بها والحياة الحافلة بالتحدي التي مُنيّ بها حالوا دون استسلامه للأمر الراهن، فدفن كل مشاعر حبه لابنته وطردها من حياته ولم يراها حتى مات.

سالت دموع شاهيناز على وجنتيها وهي تستعيد ذكرياتها، نهض مراد ورفع وجهها إليه وتطلع لها بحنان وهو يمسح دموعها براحته ويقول: «أنا عارف أنتِ قاسيتي ازاي لكن صدقيني أنا جاي النهاردة عشان أعوضك عن كل ده».

شاهيناز وهي تجفف دموعها وترد بكبرياء: «أنا دلوقتي مفيش صلة تربطني بالعيلة بعد ما ماما ماتت، وبالنسبة لحياتي هنا لازم تبقى فاهم إن المكان ده بالنسبة ليا أحسن ألف مَرة من القصور والفيلل اللي أنتَ.»

قاطعها صوت صراخ يأتي من الشارع فصاحت بفزعٍ: «خالد» وهرولت إلى النافذة فوجدت زوجها بقامته الطويلة، وجسده النحيل، وبشرته القمحية، ومقدمة رأسه الناحلة بالرغم من سنو اته التي لم تتجاوز الثلاثون إلَّا بعامين، ونظارته الكبيرة التي تغطي نصف وجهه، و اقفًا ممسكًا بتلابيب أحد الحراس المر ابطين أمام مدخل مسكنه حين منعه الحارس من الصعود إلى شقته.

وقد تدخل حارس آخر لمؤازرة زميله فأمسك بذراع خالد ودفعه أمامه بقوة فتراجع للخلف وكاد أن يقع على الأرض، وعندما شاهد ذلك صاحب ورشة السيارات المجاور لعمارة خالد سحب المفتاح الإنجليزي وهو يسب الحراس بأقذع الألفاظ بصوته الجهوري الذي وصل إلى صاحب القهوة فترك الشيشة أمامه ونهض متسائلًا بغضبٍ: «ناس مين اللي ماسكين في البشمهندس خالد؟ ده كله إلَّا البشمهندس، ده خيره على الحتة كلها».

لحظات وتجمهر الشارع أمام مسكن خالد، ووقف الحراس مرتبكين وسط جموع الثائرين، وأصبح الأمر على وشك الاشتعال عند بادرة أي من الطرفين.

كان مراد واقفًا في البلكونة يتابع ما يحدث ويراقب تطور الموقف في صمت حتى وصلت الأحداث إلى ذروتها فصاح: «إزيك يا بشمهندس، عامل إيه يا أبو نسب؟».

نظر له خالد للحظات وكان لم يلتقي به من قبل، ولكنه سمع عنه كثيرًا من زوجته وسبق أن شاهد له صورة أو أكثر جعلته يتعرف عليه بالتقريب، كان وجوده بشقته سبب كاف لجعل مخالب القلق تنهش صدره، فأسرع يصعد شقته ليعلم سر تلك الزيارة، في حين التفت مراد قائلًا لشاهيناز: «أنا بفتح معاكي ومع جوزك صفحة جديدة يا شاهي وبمد لكم إيدي بالخير».

وتحرك باتجاه باب الشقة ثم توقف والتفت وهو يشير إليها بإصبعه قائلًا بحزم: «لكن لازم تفهمي إن العرض ده pakedge على

بعضه، يا تقبليه كله يا ترفضيه كله، يا ترجعي تعيشي معايا في القصر أنتِ وبنتك وجوزك وتاخدي نصيبك في التركة، يا ترفضي كل ده وتفضلي عايشة زي ما أنتِ كده، ده اختيارك يا شاهيناز».

***

–9–

إنك ممزق بالوسوسة أيها القلب
فليتك تستطيع تمييز الطرب من البلاء!
–جلال الدين الرومي–

وقف طارق أمام المرآة يتأكد من هندامه وتناسق ملابسه، وأخذ يصفف شعرة بعناية، فتحت جيهان باب الحُجرة وأخذت تتطلع إليه ثم أطلقت صفيرًا طويلًا وهي تضع يدها على كتف بدلته وتسأله عن سر تأنقه بهذا الشكل، تجاهلها طارق واستمر في متابعة ما يقوم به.

فعادتْ تسأله متعجبة وهي تتطلع إلى عينيه في المرآة التي ينظر إليها إن كان قد نسى أن اليوم هو موعد زيارته للشيخ، فأجابها وهو يجاهد كثيرًا كي يحافظ على ألَّا يبدو منه أي بادرة تثير ريبتها بأنه لن يستطيع الذهاب إلى الشيخ اليوم وسيذهب له في الغد لأنه مدعو لحفلة أعدها زملاؤه بالمصلحة لزميل لهم تمت ترقيته وهو لا يستطيع التخلف عن الموعد فهو من سيقدم الهدية لزميلهم.

عقبتْ جيهان: «طيب يا حبيبي اعمل اللي يريحك بس طالما الموضوع حفلة يبقى لازم تغير الكرافت دي لأنها مش لايقة على البدلة، سيبني أختارلك واحدة على ذوقي».

تطلع طارق إلى الكرافت –التي كانت روان قد اشترتها له صباحًا– بشكٍ ثم قال لها: «أنتِ شايفة كده؟».

هزت جيهان رأسها بالإيجاب وهي تخرج كرافت أخرى من الدولاب فمدَّ لها يده ليأخذها فسحبت يدها من أمامه وهي تقول: «لا يا حبيبي لازم أربطها لك بنفسي».

أعقبت كلامها بأن جذبته بشدة من رابطة عنقه القديمة حتى وصل بقامته الفارعة إلى مستوى يدها فأمسك طارق بيدها قائلًا: «ما بالراحة يا جيهان رقبتي هو أنتِ بتخنقيني».

جيهان وهي تربت على كتف بدلته وتنظر له شزرًا: «مالك ما تنشف كده يا واد عمي، لا الناس الأغراب اللي في الحفلة يقولوا عليك واد طري».

طارق: «يا سلام عليكي يا جيهان أنتِ مش عاوزه تنسي أبدًا إنك صعيدية».

جيهان: «وأنسى ليه يا بوي، من نسي أصله تاه في دُنية ربنا الواسعة».

أشاح بيده قائلًا: «براحتك براحتك يا جيهان، ممكن أمشي بقى عشان هتأخر على المعاد اللي ورايا».

قالها وهو يفتح باب الحُجرة ويهم بالانصراف من أمامها فأتاه صوتها قائلةً: «خلي بالك من نفسك يا واد عمي، ربنا يحفظك ويصونك لينا».

تسمرت قدماه للحظات ابتلع فيها لعابة بصعوبة ثم التفت إليها قائلًا: «ربنا الحافظ يا بنت عمي وحبيبتي»... وأغلق باب الحُجرة خلفه وتركها تتطلع إلى الباب الموصد وحيدة تنتابها حالة من الاختناق لا تدري سببها، فتتلألأ في عينيها عبرات وليدة أخذت بالازدياد في مقلتيها.

***

أخذ الشيخ يتطلع إلى عقارب الساعة المُعلقة بجانب محراب الصلاة وقد لاحظ بدء تملل الناس من تأخر موعد إقامة الصلاة عن المعتاد، فلبث لحظات يتمتم بالذِكر ثم نهض وهو يشير إلى المؤذن بإقامة الصلاة، ووقف الناس متراصين استعدادًا لأداء الفريضة في حين تطلع هو لمَرة أخيرة إلى باب الزاوية ثم توجه للقبلة وعدل عباءته على كتفيه وثبت عمامته على رأسه وعلا بالتكبير.

***

ضغط طارق جرس الباب، ووقف على بُعد خطوات من باب الشقة وهو يمسك بيده حقيبة كبيرة تحتوي الفستان الذي اشتراه في طريقه لروان...

فتحت روان وهي تقول متعجبةً: «أنت بتخبط على الباب وو اقف مستني حد يفتح لك زي الأغراب و أنت معاك مفاتيح الشقة ف جيبك؟! اتفضل واعتبر نفسك في شقة باباك ومامتك بالظبط».

كانت الإضاءة التي أمام باب الشقة شديدة في حين تقبع الشقة نفسها في إضاءة خافتة منعت طارق من رؤية روان وهي تكلمه،

بالإضافة لحالة الارتباك الشديد التي اجتاحته منذ صعد درجات العِمارة، ولكن ما لبث أن دخل إلى الشقة و اتضحت الموجودات لعينه حتى توارى كل خجله وارتباكه وحلَّ محلهما الاندهاش وقد فغر فاه وهو يشاهد ما فعلته روان بالشقة.

لقد استبدلت أضواء الشقة الكهربائية بعشرات الشموع المشتعلة والتي بددت الظلام بضيائها المتراقص، شموع متراصة داخل شمعدانات مذهبة وفضية بترتيب متقن مدروس، في حين شُبعت أنفاسه بعطر لا يدري مصدره... عطر عجيب أحس كأن له ملمس ناعم أملس ولون مشرق زاهي، بعد لحظات من استنشاقه اجتاحته دفقة من المرح والانشراح، ووقر في نفسه أنَّ مصدر هذا الشعور هو ذلك العطر.

لم تتركه روان لأفكاره كثيرًا، إنما جذبته من يده فساروراءها فاقد الإرادة كالمُنَوم حتى دخلت به حجرة السفرة حيث تقبع المنضدة الكبيرة التي كثيرًا ما التفتْ حولها أسرته والأقارب في زمن سابق من حياة هذا البيت.

وكما هو الوضع بالخارج، أُضيئت الحجرة باللهب الشمعي، أما المنضدة الكبيرة فقد ازدحمت بعشرات الأطباق المتوارية تحت أغلفة من الورق الفويل الذي بدا لعينيه مشتعلًا من أثر الإضاءة النارية المتوهجة، ومن ركن مجهول انساب الصوت الحبيب، فتساءل طارق مشدوهًا: «فيروز!».

أعاده الصوت العذب لسنواتٍ عديدة مضت، لكم عشق فيروز وكانت له مع كل أغنية من أغانيها موقف وذكرى، ظلَّ صوت فيروزهو الرفيق وقت الرومانسية والبهجة والحزن والصخب والجنون حتى السياسة التي كان يتابعها دون اكتراث.

للحظات وقف طارق لا يدري ما يقول وبم يعلق، لقد أجادت روان ضرباتها ببراعة، ما زالت تتذكر مزاجه جيدًا، تعرف ما يرضيه وما يبهجه، ما يثير شغفه ويحرك مشاعره، ما زالت تملك مفاتيحه حتى بعد مرور كل تلك الأعوام.

ولأول مَرة تأملها منذ دخل الشقة، بدت روان نارية متوهجة ينافس ضياؤها ضياء الشموع المحيطة بالأركان، تأمل ثوبها الأحمر الناري المنحسر حتى منابت صدرها الريان كاشفًا ذراعيها وكتفيها، وقد انسدل على أطر افهما شعرها الأشقر الغزير والمصفف بشكلٍ ملتوي متعرج، منتفش كلبدة لبؤة متوحشة.

وقف طارق مشدوهًا من المشهد الذي أمامه، وشعر بتبلد واضطراب فكره، وقف كطفلٍ عاجز لا يملك من أمره شيئًا.

فأمسكت روان براحة يده اليمنى و أنامت فيها أطراف أصابعها اليسرى، بينما أراحت يدها اليمنى على كتفه وهي تنظر مباشرةً في عينيه، تريد أن تحتويه كأنما تخشى أن تبعد عنه بصرها فلا تجده أمامها، دارت به في رقصة رومانسية طالما حلمت بها في خيالها واشتاقت لها روحها المشتاقة للهوى.

على صوت فيروز دار جسديهما في تناسقٍ و انسجام لم يؤثر فيه فراق السنين، ذاب الزمن وتلاشى من حولهما، تلاقيا كأنهما لم يفترقا من قبل، ضمته إلى صدرها أكثر لتتأكد أنه معها وبين ذراعيها، كذب كل ما مضى، سراب كل ما انقضى، الحقيقة الباقية أنهما ما زالا حبيبين، رغم مرور كل تلك السنوات بقى إحساسهما على حرارته، ورغم مرور الزمن بقى حبهما أقوى من الزمن.

قاومت روان رغبتها الجارفة في أن تظل تراقص طارق طوال الليل، ولكن شغفها بمعايشته ما زالت تخفيه بجعبتها جعلها تتحرك وهي تمسك بيد طارق وتجلسه على رأس المائدة، بدأت فتح الأطباق المصفوفة أمامه فإذا بها تحتوي على أصنافه المفضلة في الطعام بالإضافة إلى أطباق مميزة من المأكولات البحرية الفاخرة والمشتملة على كميات عظيمة من الفسفور، نظر لها طارق وتكلم أخيرًا منذ وصوله وهو يبتسم: «حتى أنواع الأكل اللي بحبها لسه فاكراها!».

أجابته روان بحرارة: «هو أنا أقدر أنسى حاجة أنت بتحبها!».

ابتسم طارق ثم قال وهو يتأمل الأطباق من جديد: «كمية الفسفور اللي قدامي دي كلها تكفي عشان تنور مدينة كاملة».

ثم غمز بعينة ضاحكًا بخبث: «وتدل على سوء نية واضحة».

ضحكت روان بدورها قائلة: «في الحقيقة سوء النية مش في الفسفوروبس لكن كمان في كل الشمع اللي حوالينا».

نظر طارق حوله مندهشًا ثم تطلع لها متسائلًا، فتابعت وهي تتطلع له بنظرة مليئة بالرغبة والغواية: «كل الهبو اللي طالع من الشموع دي فيه ريحة عطرية مميزة، ريحة مثيرة ومحفزة، الشمع ده مستورد مخصوص للمقابلات اللذيذة واللي كلها شقاوة».

رفع طارق حاجبيه مندهشًا وقد فهم الآن فقط سر هذا الإحساس الذي يجتاحه منذ دخل إلى الشقة، لقد حددت روان هدفها جيدًا وجيشت على أساس ذلك كل إمكاناتها وملكاتها من أجل تحقيق مآربها.

وبدأ طارق في تناول الطعام ثم تذكر شيئًا فترك طعامه وهو يسألها من جديد عن الوسيلة التي استطاعت بها الإعداد لكل هذا، وهو الذي لم يتركها سوى منذ ساعات قليلة، فروت له بحماس أنها اتصلت بحارس الأمن الذي ساعدها صباحًا، وطلبت منه وبمساعدة إحدى مدبرات القصر تثق بها كثيرًا أن يحضر لها حقيبة ملابسها وتليفونها الخاص وكروت ائتمانها، وحين وصلت حقيبتها أصبح كل شيء بعدها سهل لم يكلفها سوى بضع مكالمات.

تجهم وجه طارق وهو يعاتبها أنها لا تُقدر حقيقة الموقف الذي هم فيه، فهي مطرودة من بيتها وواقعة في خلاف لا يعلم منتهاه إلَّا الله مع ابن زوجها الذي أضحى بعد وفاة والده أحد أكبر رجال الأعمال في العالَم.

رجل بمثل تلك الخطورة تريد أن تشاركه إرثه وممتلكاته، رجل بمثل تلك الخطورة لو شعر أنها تمثل له أدنى تهديد فسيطلق خلفها

كل زبانية جهنم، كل ما هم فيه من خطرٍ وهي لا تفكر إلَّا في إعداد سفرة وتنظيم سهرة، وتخاطر بوجودها فتكشف مكانها لأُناس سيبلغون عنها عند أول تهديد يتعرضوا له.

كان يتكلم بانفعال ويضرب على المائدة بقبضته وهي تتطلع إليه صامتة حتى انتهى من نوبة سخطه، فأخبرته وهي تحتويه بمقلتيها التي بدأت تتلألأ بالعَبرات أنَّ روحها التي بين جنبيها وكل ما في حياتها من مسرات وأشياء تخاف منها وعليها وكل عالَمها الذي تعيش فيه لا يساوي عندها لحظة واحدة تعيشها معه، تكون فيها بجواره ترى عينيه، تلمس يديه، تشعر بأنَفاسه حولها.

أخبرته بذلك وهي تتلقف راحتيه بين يديها وتضغط عليهما وتغمض عينيها وقد بدا على وجهها الخشوع والخضوع كأنها عابدة متبتلة في محرابها، ثم رفعت يديه إلى فمها وتلثمهما برقة وحنان، قضت كلماتها على أي أثر للغضب في نفسه، ثم جاءت قبلتها لتدك أخر حصونه وتوئد أي محاولة باهتة لتماسكه أمامها...

فاعترف لنفسه أن محاولة غضبه السابقة ما كانت إلَّا مقاومة بائسة منه للعدول عمَّا هو مقدم عليه، ودار حوار سقيم في عقله فبدت له الحقائق تنكشف أمام ناظريه بعد تشويش المفاجأة والانهيار الذي أحدثه له استقبال روان، والتي ما كان هروبه منها مجرد هروب رجل من امرأة فاتنة، بل هروب من ماضيه الذي سبق وأن برأ منه.

وتساءل ساخرًا: هل حقًا برأ من ماضيه أم يظن هو ذلك ويوهم ويمني النفس به؟ وكيف أنه برأ كما كان يتوهم وقد استسلم وسلَّم مفاتيح حصونه عند أول مواجهة مع هذا الماضي الذي يفصله عنه أكثر من خمسة عشر عامًا؟

خمسة عشر عامًا أم هو يتوهم أنها كذلك، أين الحقيقة من الوهم فيما هو فيه الآن، إنَّ الماضي كاملًا يمكث أمامه، يلمسه بأنامله، يشم شذى عطره، يُمنيه ويُحرضه، ينظر إليه نظرة ما زال يتذكرها جيدًا ويعلم معناها وما سببها وما تدعوه إليه.

نظرة تحوي كل معاني الشغف، العشق، الهيام، الدلال، الشبق والرغبة. من مثل تلك النظرة أُخرج آدم من الجنة، وعصى فغوى، من مثلها قَتل قابيل هابيل، من مثلها اختطف باريس الطروادي هيلين ودارت حرب العشر سنوات، من مثلها انتحر مارك أنطونيو وقُتل من قبله يوليوس قيصر، من مثلها ذهب عقل قيس ابن الملوح حتى سمي بمجنون ليلى، من مثلها هُزم نابليون قبل أن يهزم بوترلو، من مثلها قُتل الفايد وديانا.

مَن هو حتى يحتمل ما لم يحتمله كل هؤلاء، مَن هو حتى يقارن نفسه بهؤلاء، إنه إنسان بسيط، هو ملح الأرض وسوادها، هو لا يتميز إلَّا بالضعف والخذلان، والتردد والإحجام، والرغبة والعصيان، إنه إنسان... لم يشعر بنفسه وهو يقف على قدميه ويترك يديها الممسكة بيديه فيطوق وجنتيها براحتيه وينحني على شفتيها الممتلئتين يريد أن يذوب فيهما ويُذيب معها كل سنوات الشوق والبعاد.

***

انتهت صلاة العِشاء بالزاوية وبدأ الشيخ الدرس الأسبوعي الذي كان يعتبر وجبة خفيفة يقدمها الشيخ ببساطة وبلاغة ووجه بشوش يخاطب بها روح مريديه، فيطرق أبواب الأخلاق فيذكي أحسنها ويقبح سيئها، يطرق أبواب علاقة العبد بربه، يدلهم على مفاتحها ودروبها، يرغبهم في سبل نيل رضاه ويحقر في أعينهم المُلهيات عن طريقه.

كان لحديثه مفعول السحر في نفوسهم لنبل مراده وسماحة عرضه، فيخرجون من مجلسه وقد انشرحت صدورهم بمشاعر سمحة وقيم فاضلة تمدهم بمدد من نور يستضيئون بقبسه حتى لقائهم القادم.

ألقى الشيخ موعظته بعين بدت للمدقق الفطن مترقبة، كان يتكلم وعينيه تنظر إلى باب الزاوية من حين لأخر وقلبه مشغول بالمريد الغائب، أما بصيرته والتي فاقت كل حواسه المادية، بسبب عمله الصالح، وشيء ما وقر في قلبه، لم يطلع عليهما إلَّا ربه، أنباته بالكثير والكثير.

***

–10–

سكرنا ولا خمر ولكنّه الهوى
إذا اشتدّ في قلب امرئ ضعف الرشد!
–إيليا أبو ماضي–

جلس خالد في شرفة شقته شارد الذهن يتطلع بنظرة خاوية إلى الفراغ الممتد أمامه من خلال زجاج نظارته البصرية الكبيرة وزفر بقوة وهو يطرد دخان سيجارته الكليوبترا ثم يدفنها إلى جوار عشرات الأعقاب الأخرى التي تزدحم بهم مطفأة السجائر الفضية التي وضعها أمامه.

كان وجهه جامدًا لا يعبر عن مدى الضيق الذي يكابده، ولا الأفكار السوداء المتزاحمة داخل عقله، وهو يحاول استيعاب التطور الجديد في حياته بعد زيارة شقيق زوجته، والتغير الذي اعتراها منذ حدثت تلك الزيارة.

إنها مشغولة الفكر، شاردة الذهن، متوترة الأعصاب لأتفه الأسباب، تداعت تساؤلاته تلهب أفكاره وتسمم وجدانه، هل تسببت تلك الزيارة في إصابة زوجته بالنقمة على حياتهما؟ هل ذكرتها بسالف حياتها المترفة؟ هل يعكس توترها واضطرابها رفضها لحياتها معه؟

استهجن وصول أفكاره لتلك الاستنتاجات الشاذة والغير محتملة، و انطلق يراجع نفسه، ما هذا الذي يفكر فيه؟ يجب أن يثق

في شريكة حياته أكثر من هذا، إنها حبيبته وزوجته وأم ابنته، وقبل كل ذلك فهي تلميذته النجيبة، التي رشفت مع حبه أفكاره وثقافته، ومبادئه في الحياة، هي رفيقة دربه وشريكة كفاحه.

كان في كُلية الهندسة وهي بكلية الحقوق، كما أنه يكبرها بحوالي عامين، كانت فرص اجتماعهما معًا شبه معدومة، لكن المظاهرات هي ما وحدت بينهما، فكم مَرة وقفت إلى جواره وبح صوتيهما في مظاهرات يلهباها بحماسِهما المتوقد الملهم.

كم نظمت معه وقفات احتجاجية هزت أرجاء الجامعة، وقفات من أجل فلسطين، وقفات من أجل أفغانستان والعراق ولبنان وسوريا، وقفات داخل الجامعة وخارجها، أمام السفارة الأمريكية والإسرائيلية والجامعة العربية، كل هذا وهي إلى جواره كتفها بكتفه تؤمن به وتناصره.

كان يظن أنها فتاة لاهية، سئمت معيشتها الأرستقراطية وتريد التجديد بتجربة بعض الإثارة، حتى فوجئ بها ذات يوم تصارحه بحبها ورغبتها في الزواج منه، ابتسم في بادئ الأمر وظنها تمزح أو تسخر منه، لكن نظرات عينها المضطربة وارتجافة يديها والحرارة التي تحملها كلماتها، أنبأته أنَّ الأمر أكبر من كونه مزحة.

وعلى الرغم من ذلك لم يترك نفسه يَسعد بكلماتها، بل جابهها بقسوة وهو يخبرها بالفروق الشاسعة بين عالميهما، فهو الابن الأكبر لموظف بسيط يعمل في هيئة السكة الحديد، وهي ابنة رجل الأعمال الأشهر الذي يتحول التُراب بين يديه إلى تِبر.

هو ابن لسيدة تخيط الأثواب للأقارب والجيران حتى خبي نور عينها أو كاد من أجل بضعة قروش تساعد بها زوجها، وهي مع ذلك صابرة راضية، لا يعكر صفوها إلَّا حرمانها من قراءة القرآن لِما أصاب عينيها من ذبول، وهي ابنة أسرة تحتار في قضاء الإجازة الأسبوعية في أي دولة من دول العالَم.

أخبرها عن طفولته المسلوبة مبكرًا، فهو خرج للعمل فور البلوغ، اشتغل في العديد من المهن التي نحتت بيده وعقله أثارا لا تمحوها السنون، وهي ابنة أسرة كانت تعتبر مجرد أحلامها أوامر واجبة التنفيذ، هو ابن لأسرة يؤرقها أنَّ صغارهم سيبيتون دون عشاء، وهي ابنة لأسرة أشد ما يحيرها لمن سيوجهون دعاوي الحفلات الصاخبة وعشاءات العمل.

هو ابن المقهورين وهي ابنة القاهرين، هو واحد من ضحايا الفساد، وهي ابنة أحد أعمدة هذا الفساد، ذكّرها بحقيقتها التي قد تكون تغافلت عنها، كان يتكلم بحدة وعصبية حاول بها ستر ما وري من فقره أمامها، بينما تضاءلت هي أمام ثورته رغم إحساسها بالمرارة التي حوتها كلماته.

انسحبت من أمامه تجر خجلها وغصة سدت حلقها وإثمًا لم تقترفه يداها، ظنَّ أنَّ الأمر انتهى على ذلك، واستمرت الحياة تدور من حولهما وبهما، صهرتهما بشجنها وجنونها وصخبها وصمتها، وشوارعها التي أصبحا أحد معالمها، حتى تخرجا من الجامعة، فوجدها ما زالت على عهدها، تتبنى نفس الأفكار التي كان ينادي بها، ما زالت تهتم وتنفعل وتتفاعل مع قضايا وطنها، ودون أن يدري وقع في عشقها.

عشق صلابتها وتصميمها و إيمانها بقضية ليست أحد ضحاياها، لم يستطع أن يبوح بمشاعره لها، حتى كان يوم تجمعا في تظاهرة وحدث اشتباك مع قوات الأمن وتداخلت الإرادات.

وفي لحظة انقضت قوات الأمن على المتظاهرين ففر من أمامهم الرفقاء، وفي مشهد مفزعٍ وجدها تقع فريسة تحت ضربات عصا الأمن الغليظة، فلم يشعر إلَّا وهو يلقي بنفسه فوقها يحميها ويتلقى عنها الألم، وفى لحظة حوت خبرات سنوات من التشرد والتصعلك والمشاكسة حملها بين يديه وفر بها راكضًا والجند في إثرهم.

فلمَّا رأى أصدقاؤه الذين كانوا يفرون ذلك المشهد، تراجعوا للذود عنه فشكلوا حلقة حولهما ومكنوهما من الذوبان داخل جموع البشر المتلاطمة، وحين ابتعدا وشعرا بالأمان وقفت هي ترتجف بأنفاس متلاحقة من الركض والقهر واليأس، ووقف هو إلى جوارها لا يقل سوءًا عن حالها.

وفي لحظة تلاقت عينيهما المترقرقة بالدموع، لم يدركا إلَّا وهما يندفعا في عناق طويل، عناق جبَرَا به هشاشتهما وخواطرهما المنكسرة، عناق ما زال يشعر بدفئه حتى اليوم، ولم يفترقا بعده حتى الآن.

***

كادت شفتا طارق تنال مبتغاها لولا أن سحبت روان جسدها برشاقة من بين ذراعيه التي تطوقانها، نهضت من على المقعد التي

كانت تجلس عليه وهي تقول له بدلال: «اصبر عليا شوية، في مفاجآت كتيرة لسه محضراها لك».

تختفي مسرعةً تاركة إياه في حيرة، لبثت دقائق ثم عادت تدفع أمامها منضدة صغيرة عليها زجاجة شمبانيا وبجوارها إناء معدني يحتوي على قطع كثيرة من الثلج وكوبين وطبق كبير من الكاجو والمكسرات.

ثم لبثت تعالج بيد خبيرة غطاء الفلين الأبيض للزجاجة الصفراء زاهية اللون حتى انتزعته بصوت مسموع أعقبه الفوران الشهير من عنق الزجاجة لمحتوياتها، فأطلقت روان ضحكة عابثة جذلة وهي تملئ الكوبين فتضع في إحداهما قطعتين من الثلج ثم تقدمه لطارق، لكنه أزاح الكأس جانبًا معترضًا، فوضعت الكوب أمامه من جديد وهي تبتسم مبرره: «اشرب شوية بس عشان نفك مع بعض وننبسط، صدقني النوع ده روعة جدًا، ده يعتبر عصير العنب ومفيش جواه أي كيماويات، مش موجود في المحلات أو الفنادق لكن موجود عندي أنا وبس».

ضحك ساخرًا وهو يقول: «أنتِ ناقص كمان تقولي انه مفيد للصحة وبيقوي المناعة، يا شيخة ارفعي ارفعي القرف ده من قدامي ما تبوظيش القعدة بقى».

روان بضيق: «خلاص مش عاوز تشرب براحتك، وأنا كمان براحتي».

وأمسكت بكأسها وألقته بجوفها دفعةً واحدةً، ثم قالت وقد احتقنت وجنتيها من أثر الشراب: «طيب كل ولا الأكل كمان فيه مشكلة».

ضحك طارق وهو يمسك بأدوات الطعام التي أمامه ويقول: «لا كله إلَّا الأكل، هي دي الحاجة الوحيدة اللي ممكن تقولي إني أدمنتها بجد بعد الجواز».

ارتبك طارق قليلًا بعد نطقه للكلمة الأخيرة فعمد إلى الطعام الذي أمامه يداري فيه ارتباكه في حين شعرت روان بغصة مريرة في حلقها، فصبت لنفسها كأسًا أخر.

ساد بينهما الصمت لفترة طويلة انشغل فيها كل منهما بأفكاره الخاصة حتى قطعت روان هذا الصمت قائلة بمرحٍ مفتعل: «في عندي مفاجأة تانية عملاها لك».

غابت من أمامه ثم عادت وبيدها حقيبة سوداء متوسطة الحجم عالجت أقفالها وهي تقول: «المفاجأة دي من العيار التقيل يا طارق، أخر كارت في إيدي ألاعب بيه مراد الغامري».

فتحت أمامه الحقيبة وهي تقول: «اللاب توب ده هو الجهاز الخاص جدًا لجودت الغامري نفسه، ده اللي كان عليه كل أسراره ومعاملاته هنا وبره البلد، ده المُكنة اللي بيدفس فيها جودت كل اللي يخصه».

ابتسم طارق من كلمات روان كأنها أحد تجار المخدرات وضحك قائلًا: «الله يخرب بيت فقرك، الناس خرجتك الصبح بالهدوم اللي عليكي، على الليل تكوني ناقلة كل اللي عندهم هنا، انتِ ناقص تنقلي الجنينة وحمام السباحة وتجيبيهم هنا».

ضحكت روان وقالت: «وحياتك لو المكان هنا يكفي كنت نقلتهم، أعمل إيه بس، الحمد لله أنا كنت بساعد الناس هناك من وقت للتاني بشوية حاجات بسيطة كده، النهاردة الخير اللي كنت بعمله رجع ليا تاني، الناس مش متأخرة عني في حاجة، واللاب توب ده أنا كنت خرجته من خزنة جودت اللي كنت حافظه أرقامها السرية وخبيته في دولابي، كان قلبي حاسس إن ممكن يكون له وقت عوزة».

أشار إليها طارق وهو يقول: «طيب إفتحي لمَّا نشوف العالَم السري للرجل الغامض بسلامته جودت باشا الغامري، كان مخبي إيه عن العالَم طول عمره؟».

سكتت روان في حيرة وهي تقول: «المشكلة إني مش عارفة باسورد الجهازعشان أفتحه».

رفع طارق حاجبيه مندهشًا وهويقول ضاحكًا: «يعني أنتِ عملتي كل ده وعجزتي إنك تعرفي الباسورد، طيب يبقى إيه لزمته؟».

روان بعناد: «لا طبعًا ليه لزمة ولزمة كبيرة كمان، في شركات متخصصة في البرمجة والسوفت وير ممكن تفك باسورد اللاب توب وساعتها اللاب ده يبقى تمنه مليارات».

فكر طارق قليلًا ثم قال: «محلولة يا روان ولا يهمك لا شركات وغيره».

وحكا لها عن صديقه أمجد خبير الكمبيوتر وأنها ما دامت تثق في أنَّ المعلومات التي على الجهاز بالغة الخطورة فالأمر يتطلب شخص مؤتمن حتى لا يسربها أو يساومهم على تلك المعلومات.

أومأت روان برأسها مو افقة وهي تقول: «المهم أخد حقي، أنت عارفني كويس لمَّا يكون ليا حق عند حد أقلب الدنيا لحد اما أخد حقي منه».

وقامت من مقعدها وهي تنظر إلى عيني طارق، وقد لعبت الخمر برأسها ومنحتها جرأةً وتحررًا دون حد، فأمسكت بيديه بين راحتيها وأخذت تقبلهما في وله وهي تقول بصوتٍ مليء باللهفة والشبق: «و أنت حقي يا طارق، حقي اللي ضاع مني من سنين، حقي اللي مستنياه بقالي سنين، ومش ناويه أتنازل عنه أبدًا في اللي باقي من حياتي».

وأنهضته ليقف إلى جوارها ثم شبكت أصابعها بأصابع يده وجذبته ليسير خلفها مسَلمًا لها كيانه وإرادته مستسلمًا لرغبته المتأججة، سار ينظر إلى ظهرها المكشوف حتى خاصره الفستان المتلألئ بخرزات بر اقات متناثرة على حروفه تنافست مع بياض ظهرها الناصع، سرح طارق في بحور الفتنة والغو اية المتجلية أمامه، فقد كل إدراك لذاته وكل ما حوله، ولم يدر بساقه وهي تتحرك به ليعبر الرواق المفضي إلى حُجرة النوم.

***

–11–

ليتنا لم نلتقِ منذ البداية،
ليتني يومها تأخرت في النوم عشر دقائق أخرى
كنت اختصرت عمرًا من الوجع!
–نزار قباني–

دخلت شاهيناز إلى شرفة منزلها تحمل صينية عليها كوبين وزجاجة بيرة مثلجة وطبقين بإحداهما أعواد الجرجير الطازج والآخر عليه الترمس المملح، منحها خالد ابتسامة مفتعلة، جلست أمامه وصبت من الزجاجة فملئت الكوبين ثم سحبت لنفسها سيجارة من علبة زوجها وأشعلتها بقداحته ونفثت دخانها بقوةٍ حملت كل توترها، حاولت أن تبدد الصمت المخيم عليهما فقالت: «اللي واخد عقلك؟ شكل زيارة الصبح عملت لك قلق».

أمسك خالد بجانب نظارته لتثبيته على أنفه وهو يقول بهدوء: «مش لدرجة قلق، يمكن عشان أول مَرة يزورنا حد من أهلك، يعني تقدري تقولي متفاجئ مش أكتر».

شاهيناز: «طيب حتى مفيش عندك فضول تعرف سبب الزيارة؟».

ابتسم خالد فأخذت تروي له تفاصيل ما حدث حتى وصلت إلى عَرض مراد وشرطه لتنفيذ العَرض، فسألها خالد عن ردها فجاوبته

بأنها لم تعطه ردًا حتى يتشاورا كما اعتادا منذ زواجهما.

ثم تابعت تروي له عن افتقادها لأخيها الأصغر فهو الوحيد الباقي من أسرتها، ونظرة الحنان التي رأتها بعينيه حين داعب ابنتها لكنها مع ذلك تخشى العودة إلى الحياة التي كانت تعيشها قبل أن تلقى خالد، خاصة أنها ذاقت طعم الحرية وملكت قرارها وعاشت بين الناس الحقيقية في مشاعرهم و انفعالاتهم، ثم عادت تتساءل كيف لها أن تترك إرثها؟

أدرك خالد مشاعرها المضطربة لكنه كان حادًا ومحددًا في كلامه: «لو كُنتِ بتتكلمي عن حقك في ثروة أبوكي فانت عارفة مصدر الثروة دي إيه وعلى حساب مين اتعملت، فبالتالي مجرد تفكيرك في قبولها يبقى خيانة لأفكارك ومبادئك اللي ضحيتي عشانها ومكملة في حياتك عشان تحققيها».

عقبت شاهيناز: «طيب ومش يبقى أفضل إني أستخدمها في تحقيق الأهداف والمبادئ دي».

خالد: «كلامك غلط لأنك وقتها هتكوني اتغريتي بقوتها وهييجي يوم مش هتلاقي في قلبك ذرة تعاطف واحدة مع ضعف المحتاجين واحتياجهم، لدرجة إنك بعد كده هتشمئزي من انكسارهم وقلة حيلتهم».

شاهيناز بعناد: «يكفيني شرف المحاولة».

ثم نهضت وهي تتابع بلهجة قاطعة: «أنا مش هضحي بالفرصة دي عشان شوية تكهنات وتخوفات محتملة».

ابتسم خالد بسخرية وهو يقول: «أنتِ بتحاولي تلوي الحقايق عشان تعملي اللي في نفسك».

شاهيناز: «خلاص أعتقد كده إننا مختلفين يا خالد ومش قادرين نتفق على وجهة نظر واحدة، وزي ما احنا متعودين لمَّا بنختلف، أنا هعمل اللي معتقدة إنه صح و أتحمل نتيجة قراري».

خالد: «أنتِ عارفة طبعًا أنا مش بحجر على حريتك ولكن ببلغك بس إذا كُنتِ مصممة على موقفك فانتِ هتمشي فيه لوحدك».

ونهض هو الآخر في هدوء وتركها منهيًا النقاش.

***

عشر خطوات هي مسافة الصالة الضيقة التي تصل إلى حجرات الشقة الداخلية، سار طارق إلى جانب روان التي تتأبط ذراعه بيدها، كانت تضغط على يده بشدة كأنه سيهرب منها، أو لتؤكد لنفسها أنه معها، تمسكه بيدها وتتطلع إليه بعينها وتبثه من حرارة جسدها وليونته، بينما هو يسير بجوارها كالمسحور، تسيطر عليه رغبته المتأججة و أفكاره المتقافزة داخل رأسه بآلاف التفاصيل الممتعة.

كانا قد وصلا أمام باب الحُجرة ففتحت روان بابها ثم مدت راحتها مشيرة إلى طارق وهي تقول بصوتٍ منخفض مغري بح من ذروة الإثارة

وتملك الشهوة: «اتفضل يا حبيبي».

تقدم طارق كالمُنوَم وهو يتطلع إلى الغرفة المظلمة إلَّا من إضاءات الشموع، والفراش الكبير الذي يتوسط الحجرة وأُحيطت جوانبه بستائر مخملية شفافة بينما فرشت حاشيته بفُرش ملساء حمراء مطعمة برسومات ورود بيضاء اللون، وقد نثرت على الفراش أوراق ورد حمراء اللون ذكية الرائحة، ومن أحد الأركان انسابت موسيقى كلاسيكية هادئة.

نظر طارق لكل ما أُعد من حوله من صور مبهرة برعت روان في إعدادها، ثم التفت إليها من خلفه وأخذ يتطلع إليها مبهور الأنفاس، كانت عيناه تحملقان فيها كأنما تأكلها من رأسها حتى قدميها، كانت تتمثل أمامه كأصل الغواية ومصدر الأنوثة، رقصت أفكاره بسيل من الذكريات الملتهبة التي كانت بينهما.

تداعت الصور أمام عينيه فطار صوابه ولم يدرِ بنفسه إلَّا وهو ينحني على روان ويحملها بين ذراعيه ويخطو بها إلى الفراش الوثير.

***

انتهت الموعظة الأسبوعية للشيخ وأعقبها تسابيح وأذكار وابتهالات، ثم اتكأ الشيخ بظهره على المنبر وأسبل جفنيه وساد الصمت، همَّ المريدين بالنهوض لولا أن اعتدل الشيخ من جديد واتخذ مجلسه ورفع يده يدعو، كان الواضح للحضور أنَّ الشيخ

يدعو بتضرعٍ ورجاء لشخصٍ واقع في كرب وبلاء شديد فأخذوا يُأمنون بقلوب حاضرة غير عالمين مَن هو المقصود بدعاء الشيخ.

***

أطلقت روان ضحكة صاخبة جزلة حين ألقى بها طارق فوق الفراش، كانت تشعر بأنها تحيا أسعد لحظات حياتها، فانطلقت ضحكاتها تعبر عن إحساسها، ضحكة منتصر حقق أخيرًا مراده وحسم معركته، كانت تعلم أنَّ هناك ألف حاجز وحاجز بينها وبين حبيبها ولكنها راهنت على امكانياتها اللا متناهية وقدرتها وتجربتها السابقة معه، وقد صدق ظنها، فها هو طارق حبيبها يُحل مسرعًا أعلى أزرار قميصه ويسرع كالمجنون إلى جوارها على الفراش وهو يأكلها بعينيه، ولوهلة التقت عيناهما.

***

أغسطس 2006م. / مستشفى اليسر للولادة.

كان طارق يهرول إلى جوار الترولي الذي يسرع به الممرضين وهو ممسكًا بيد جيهان بقوة، وقد بدا على وجهها الرقيق ألم جبار يعصف بكيانها كله، نبتت حبات العَرق فوق جبينها وأطلت خصلات فاحمة من شعرها تطل من تحت حجابها لم تفلح في حجبها من الألم بيدها الأخرى، وصلوا إلى غرفة العمليات فوقفت الطبيبة أمام بابها كي تمنع طارق من الدخول وتطمئنه على زوجته.

لحظات و ابتلعتهم الحجرة بداخلها، و انحنى طارق يجلس على الأرض، متكئًا إلى الحائط بظهره، وقد عقد ذراعيه على ركبتيه ودفن بينهما رأسه، وأخذ جسده يرتجف وهو يتمتم ببعض الأذكار، ثم سمع صوت خطوات تهرول قادمة تجاهه ثم صوت أمه وهي تسأله متلهفة تريد الاطمئنان على جيهان، تبعها والده وهو يمسكه من ذراعه لينهضه ويشد أزره كي يتماسك.

ثم حاول أن يُسري عنه فأخبره بأنه فور سماعه بالخبر اتصل بجده عبد الرحمن ليخبره بالولادة ومدى السعادة التي تلقى بها جده الخبر وسيركب من فوره ليأتي إلى القاهرة ليطمئن على حفيدته ويبارك لهم على المولود.

قاطع حديثه صوت ضجة آتية من ناحية غرفة العمليات تبعه خروج الممرضة تفتح باب الغرفة بعنف وهي تهرول وقد بدا عليها الاضطراب، فجرى تجاهها طارق متلهفًا يريد الاطمئنان فجاوبته باضطرابٍ شديد: «ربنا يستر، ربنا يستر».

فأمسك بيدها ليوقفها بعنفٍ: «في إيه فهميني في إيه؟».

الممرضة وهي تنظر له برعب: «مش عارفة المدام بتنزف جامد ونبضها ضعيف وضربات قلبها متسارعة جدًا ادعيلها ربنا ياخد بـ» تركها طارق دون أن يستمع إلى باقي كلماتها و اندفع يقتحم حجرة العمليات في جنون.

حاول أحد العاملين أن يوقفه فدفعه بقوةٍ فأطاح به من أمامه ثم دفع باب أخر أمامه فإذا هو داخل حجرة العمليات وزوجته على فراش الولادة وطاقم الأطباء والممرضين يبدو عليهم الاضطراب الشديد صاح به أحدهم: «أنت ازاي تدخل هنا من فضـ» قاطعته إشارة الطبيبة له أن دعه يمضي مع زوجته لحظات لعلها قد تكون آخر لحظاتهما معًا.

انحنى طارق على زوجته يُقبل يدها ويبللها بدموعه المنهمرة من عينيه، فحركت أصابعها بضعفٍ شديدٍ، فنظر لها فوجدها تتمتم ببضع كلمات فاقترب بأذنه من فمها ليسمعها فوجدها تقول له: «بحبك».

ثم شهقت بقوةٍ وتشنج جسدها كله و انتفض وتصلبت ملامح وجهها وجحظت عينيها ونظرت إلى طارق نظرة ارتجف لها جسده كله من رأسه حتى أخمص قدميه، نظرة مستغيثة، نظرة ضارعة، نظرة محبة، نظرة عاشقة، نظرة راجية.

***

تلك هي النظرة التي وجدها طارق وهو ينظر في عيني روان، فجأة اختفت كل الموجودات من حوله، الغرفة والشموع والفراش وحتى روان بكل أنوثتها وإغرائها وغوايتها، ولم يبقَ أمامه إلَّا وجه زوجته وهي تنظر له تلك النظرة التي يتذكرها جيدًا ولم ولن ينساها ما بقي له من حياة.

ارتجف جسده كله وتجمدت نظرته ولم يدرِ بنفسه إلَّا وهو يتمتم باسم جيهان ويهرول خارجًا من الغرفة وينتزع سترته المعلقة على ظهر مسند الكرسي حيث تركها فكادت شنطة اللاب توب أن تقع بما تحتويه لكنه أسرع يلتقطها قبل أن تقع على الأرض وأسرع يفتح باب الشقة ويعدو إلى السلالم كأن شياطين الجحيم كلها تطارده.

***

–12–

كل إنسان يستطيع السيطرة على الحزن..
إلا الحزين!
–وليم شكسبير–

12 ديسمبر

كانت دقات الساعة الثانية عشر تتناغم في انسياب حين فتح طارق باب شقته، كانت الشقة ساكنة في ذلك التوقيت حيث لبث الجميع في نومٍ عميق، وضع الحقيبة التي بيده على منضدة قريبة من حجرة نومه ثم دخل غرفته وهو يحاول ألَّا يصدر عنه أي صوت كي لا يوقظ زوجته من سباتها.

أخذ يستبدل ملابسه ولكن ارتجافة يده واضطرابه الشديد جعله يغلق الدولاب بصوتٍ كبير، فاستيقظت زوجته وأضاءت نور الأباجورة التي بجوارها وهي تقول له بصوتٍ رقيق: «حمد الله على سلامتك يا حبيبي، أسفه والله أنا نمت قبل ما توصل من كتر التعب طول اليوم، ثواني أقوم أحضر لك العشا على طول».

نظر لها وحاول أن يرد عليها بصوت طبيعي لكنه حرك شفتيه بكلمات لم تبرح حلقه، نهضت جيهان قلقة وقد غادرتها كل رغبة في النوم، لم يدرِ طارق بنفسه إلَّا وهو يرتمي بين أحضانها ويبكي كطفلٍ ضلَّ طريقه وتاه من أمه حتى وجدها.

يبكي بكل ما يضيق به صدره من ندم وإثم وإحساس بالذنب، استمر اعترافه إلى الساعات الأولى من الصباح، وكان اعترافه كاملًا، حكا لها كل شيء بأدق التفاصيل، حتى إحساسه ومشاعره المتضاربة وصفها لها، حنينه واشتياقه لأيام خلتْ، رغبته وإحجامه، شوقه وترددده.

وأمام الحقيقة الصادمة والاعترافات المرعبة أحست جيهان بسكين بارد يطعن قلبها ويدمي روحها، رأته كأنها لم تره من قبل وأحست كأنها تتعرف على إنسانٍ جديد، ليس هذا زوجها وأب ولديها الذي دامت عشرتها معه كل تلك السنوات الطوال.

حاولت أن تتجلد وتظهر الثبات، بذلت جهدًا مضنيًا كي تغتصب على شفتيها ابتسامة متسامحة، احتوته بين ذراعيها وهدهدته كأمٍ، منعت بإرادة غير عادية دموع الضعف والانكسار وخيبة الرجاء في رَجلها، وبأنامل مرتجفة مسحت شعره ودموعه المسكوبة في حضنها.

ساعات صعبة مشحونة بمشاعر متضادة عصفت بالزوجين، أمَّا هو فقد منحه الاعتراف سلامًا وطمأنينة، نقاء وصفاء، غسل روحه المنكسرة بثقل تأنيب ضميره بنور الخلاص، تجرد أمامها من كل عيوبه وآثامه، وحين هبت نسمات الصباح المنعشة أحس بأنه وُلِد من جديد... وأمَّا هي فقد أغلقت قلبها الكسير على جُرحها النازف، بينما أخفت أفكارها وإرادتها وعقدت عزمها وتصميمها على قرارعنه لن تحيد.

***

استغرق طارق في نوم عميق بعد ليلة عاصفة مرتْ به بينما لم يغمض لجيهان فيها جفن، وحين دقت الساعة التاسعة كانت و اقفة في الشارع أمام مسكنها تشير إلى سيارة أجرة وتخبر السائق بوجهتها، جلست بالمقعد الخلفي تلمح صورتها المنعكسة على مرآة السيارة فتتأكد من أن نظارتها الشمسية التي ترتديها تؤدي عملها بشكلٍ جيد في حجب أي أثر لعينيها المسهدتان من قلة النوم و أثر الدموع.

تسارعت أفكارها الصامتة، سيظن طارق أنها ذهبت إلى عملها فهذا نفس الميعاد الذي تذهب فيه كل صباح، من الجيد ألَّا يعلم عما تنوي فعله، فمن حقها هي الأخرى أن يكون لها أسرارها التي تحتفظ لنفسها بها ما دامت هذه هي قواعد اللعبة، (الأسرار).

لم تكنْ تظن يومًا أن تتعرض لمثل ما هي فيه الآن، أن تتكشف أمام عينيها جوانب لم تكنْ تعلم بها عن زوجها، زوجها الذي أحبته بكل كيانها من اليوم الأول الذي التقته فيه ومنحته المهدئ في منزل جدها عبد الرحمن حين كان يُعالَج من إدمانه.

أحبته بكل كيانها واعتبرته عوضها عن أبيها وأمها اللذان حُرِمَت منهما في صغرها، لم تعرف رجلًا قبله ولم يُفتح قلبها البكر لحُب أحد سواه، هكذا نشأت وتربت في مجتمعها المحافظ.

وعلى الرغم من أنها متعلمة وطبيبة بيطرية وعاشت حياة الجامعة لكنها خاضت كل ذلك وفق موروثها الثقافي والمتأصل الذي شبَّت عليه.

وحين رأت طارق وتعلق قلبها به لم تُصَرح له بمشاعرها الوليدة، حتى أخبرها برغبته في الزواج منها وطلب يدها من جدها، في ذلك اليوم جرت من أمام عينيه المتعجبتين وهو يعزو هروبها إلى الخجل لكنها كانت تتقاذفها مشاعر فرَاشة، فرَاشة تريد أن تحلق طائرةً في الهواء من السعادة، تنطلق في الفضاء دون قيد أو شرط.

وحين أغلقت باب حجرتها خلفها رقصت، وتفاجأت هي ذاتها من أنها تحمل كل تلك الأنوثة والليونة، كانت تتمايل بخفة وقد انساب شعرها الأسود الفاحم اللامع حتى منتصف ظهرها...

كانت تتمايل بغير موسيقى أو إيقاع فقد كان الكون كله من حولها يعزف في أذنها أعذب الألحان، أمسكت بصورة أمها الموضوعة أمام تسريحتها، وأخذت تضمها إلى صدرها وترقص بها، شعرت بأنها معها تر اقصها وتسعد لسعادتها وفرحها.

تذكرت الطرقات الخفيفة على بابها والتي أخرجتها من حالتها الفريدة التي تعيشها...

أسرعت تضع صورة أمها مكانها، وتلم شعرها بمشبك للشعر، ثم فتحت فرجة من الباب، فطالعها وجه جدها فازدادت ارتباكًا أمام عينيه النافذتين المستطلعتين وهو يستأذنها في الدخول.

فتحت أمامه الباب على مصراعيه، قال لها أنه قلق عليها عندما رآها تعود مسرعة وتهرع إلى حجرتها دون أن تمر به على غير عادتها، فزاد ارتباكها وتلعثمها وهي تعتذر له عن ذلك وتخبره أنها بخير حال،

حينها لمحت شبح ابتسامه تشق طريقها بين تجاعيد وجهه، وعينيه تنظر لها نظرة من يعلم كل شيء وهو يقول لها ربنا يسعدك ويفرح قلبك يا بنتي.

– هو ده العنوان يا مدام.

أفاقت جيهان من خواطرها على صوت سائق التاكسي، فنظرت من شباك السيارة وتأكدت من وصولها إلى عنوانها المنشود، نقدت السائق أجرته ونزلت إلى الطريق، وقفت أمام باب العمارة التي صعدت لها كثيرًا برفقة زوجها، عمارة والد طارق.

***

فتحت جيهان باب الشقة وبخطوات مترددة خطت داخلها وبأصابع مرتجفة أضاءت أنوار الصالة وأخذت تنظر حولها، صدمت عينها أثار ليلة الأمس، اقتحمتها مشاعر الغضب وتحركت غيرتها تعربد بصدرها، جرت إلى الممر المفضي إلى غرف النوم، دلفت تقتحم كل غرفة، تفتح الأبواب المؤصدة بعنفٍ وغضب أخذ يتز ايد وهي لا تجد أي أثر لغريمتها التي جاءت لتفترسها بأسنانها.

هكذا كانت تعزم أمرها، ستجرح بيديها وجهها كأي هِرة تدافع عن صغارها، ستُفرغ عليها كل غضبها والمعاناة التي عاشتها ليلة الأمس، بِعَضةٍ ستترك آثارها الغائرة على وجنتها إلى الأبد، لقد جاءت تعتزم أمور كثيرة ذهبت كلها سدى مع ذهاب تلك الحية التي تريد تسميم عشها الهادئ.

أخذت تفكر في فوات فرصة الانتقام والأخذ بثأرها، زاد غضبها وتحول إلى جنون، أخذت تمسك بالأطباق وتهشمها على الأرض، هشمت الزجاجة والكؤوس وكل ما على المائدة، هرعت إلى غرفة النوم، انتزعت الستائر الملتفة حول الفراش، انتزعت الوسائد وفرش السرير وألقتهم على الأرض.

كانت تتحرك وهي تصرخ وتخاطب غريمتها كأنها حاضرة أمامها، تسبها وتلعنها بألفاظ لم تكنْ تتخيل وجودها في حصيلتها اللغوية، استمرت في نوبة جنونها حتى لم تعد تتحمل المزيد، ألقت بجسدها المنهك على أقرب مقعد أمامها وقد خارت قواها على حين بغتة وأحست بإعياء شديد، تمتمت بشفتين مرتجفتين وصوت يقطر بالمرارة ويختنق من العَبرات: «الله يسامحك يا طارق، الله يسامحك، ليه تعمل فيا كده؟».

***

(ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها)

ترددت تلك المقولة في عقل روان وهي تجلس على مقعد مريح داخل أحد أرقى النوادي الصحية بالقاهرة، استرخت وتركت رأسها إلى مصففي شَعرها المختصين، وحلَّقتْ بعقلها في ظُلمات أفكارها المتلاطمة كالبحر الثائر.

كانت تحس بالمهانة وتشعر بمرارة الهزيمة تدنس كبريائها، مرارة لم تشعرْ بمثلها من قبل حتى في أحلك لحظاتها، حتى عندما غاب

عنها طارق و ابتعد عن عالَمها، كانت تعتمد في كل ذلك على إحساس صغير راسخ بداخلها، إحساس يربو إلى الاعتقاد واليقين أنَّ طارق ملِكَها غاب عنها لكنه ما زال يحبها.

فرقوا بينها وبينه رغمًا عن إرادته، استغلوا الظروف التي مروا بها وسلبوه منها قصرًا، أبوها، أهل طارق، جودت الغامري، تضافرت كل جهودهم ليوئدوا حبهما، ظنوا أنهم نجحوا حين باعدوا بين جسديهما، ولكن هيهات إنَّ القلوب ما زالت مغلقة على عشقها مستترة عليه، وما علمهم بلغة القلوب، ما علمهم بمواثيق العشق والعهود التي أبرموها وكل منهما ينظر بعين الأخر، ما علمهم ولو أنصفوا لأدركوا مدى جهلهم، أوهكذا ظنَّتْ، حتى تحققت الآن من مدى جهلها.

سنين مضت وهي تحيا في وهمٍ كبير، يلتهمها الشوق إلى اللقاء الموعود، تنسج من الخيال أحاديث وضحكات وصخب وآهات كان بطلاها هي وحبيبها الغائب المنتظر، كانت تتوقع أن الحقيقة ستكون أبدع كثيرًا من نسج خيالها، ما حسبت يومًا أنَّ نسج خيالها واه ضعيف كخيوط العنكبوت.

تولدت بداخلها حالة من الغضب والكره، الحقد والانتقام، ستمضي في حياتها فقط من أجل أن تحقق تلك المعاني، لقد مرغ طارق أنفها في التراب، أهدر كرامتها دون رحمة، ولكنها ستعرف جيدًا أن تنتقم لنفسها وترد له الصاع صاعين، ويوم ترى دموع عينيه التي كثيرًا ما ذابت فيهما عشقًا لن تضعف وستشعر حينها بالانتصار.

***

–13–

لربما أنك باحث في الأغصان
عما لا يظهر إلا في الجذور
–جلال الدين الرومي–

بطرقاتٍ خفيضة مترددة قرع طارق باب مسكن الشيخ، لحظات وفُتح الباب مسفرًا عن وجه الشيخ البشوش، مرتْ لحظات الترحيب وساد الصمت للحظات بددها صوت طارق يحكي للشيخ ولمدة ساعة متواصلة من الحكي المضطرب، تخللها بعض التوقفات، كان طارق يحاول فيها أن يتمالك نفسه ويمنعها من الانهيار التام والرضوخ لرغبته العارمة في الاستسلام للبكاء مكتفيًا بعَبرات تتقاطر من مقلتيه من آنٍ لأخر.

روى طارق كل ما حدث في الأيام السابقة معتمدًا على معرفة الشيخ لماضيه، وأخذ يلقي باللوم على نفسه ويؤنبها، وانطلقت أسئلته كجمرات اللهب تحرق روحه المعذبة، كيف أتردى من جديد وقد ذُقت حلاوة الإيمان؟ كيف تزل قدمي بعد ثبوتها على الطاعة كل تلك الأعوام؟ كيف لم تردْ عني كل نعم الله علي؟! كيف لم تنهاني صلاتي ولم تعصمني طاعتي وعبادتي كل تلك السنين؟

أخذ يُلقي بتساؤلاته وتأوهاته والشيخ يستمع إليه في صمتٍ ويده تتحرك في تؤده على مسبحة فيروزية بيده، تطلع طارق إلى شيخه ينتظر منه الإجابة على تساؤلاته، طالعته ابتسامة باهته ارتسمت

على شفتي الشيخ، دام الصمت للحظاتٍ ارتبكت خلالها أفكار طارق وتسارعت داخل عقله حتى أنه ظنَّ أنَّ شيخه يبحث عن إجابة أو أنه لا يملكها من الأساس.

فجأة توقفت أصابع الشيخ من المتابعة على المسبحة ثم قبض عليها وطواها بحزم بقبضته اليمنى، ووضع راحة يده اليسرى على قدم طارق وتكلم بصوت هادئ رغم ما استشعره فيه طارق من قوةٍ وحسم: «إن كنت تنتظر الغوث والعون من عبادتك وصلاتك وعملك الصالح فقد ضللت الطريق، إن كنت تنتظر الغوث والعون من أسرتك ووظيفتك ووضعك الاجتماعي ومالك الذي وهبه الله لك فقد ضللت الطريق، إن كنت تنتظر الغوث والعون من نفسك التي بين جنبيك فقد ضللت الطريق، إن كنت تنتظر الغوث والعون من عقلك الذي حرصت على تطويره وتثقيفه بشتى العلوم واجتهدت كي تجعله أرقى وأسمى فتفتخر به وتزهو بين الخلق فقد ضللت الطريق ولم تتعلم شيء فيما مضى لك من أعوام».

للحظة شعر طارق بأن عيني الشيخ تخترقانه، تستوعبه، يغرق فيهما عمَّا حوله من موجودات، أحس بأن راحة يده قد أصبح لها ثقل كبير على قدمه والشيخ يتابع حديثه قائلًا: «العون لا يكون إلَّا من صاحب العون، لا تبحث عن الأسباب وتنسى مسبب الأسباب، هو مُنَزِل البلاء كما أنه هو المُنَجي والمعين».

وتحركت يد الشيخ القابضة على المسبحة وقد استقام بها إصبعه السبابة وهو يقول بخشوعٍ: «إن كنت ستبحث فابحث عن الله».

ثم ضربت يده صدر طارق ببعض القوة وهو يقول: «وقلبك».

ثم عادت الابتسامة إلى وجه الشيخ من جديد وهو يقول بوجه مليء بالبِشر: «يبتلى المرء على قدر دينه يا ولدي، هذا امتحانك قد وضع الله قلبك فيه ولولا ربك ونقاء قلبك ما نجوت».

***

–14–

فلسفتي أن الكبرياء على المتكبرين
أعلى التواضع
–مصطفى صادق الرافعي–

13 ديسمبر

جلس خالد منتظرًا بالسكرتارية الخاصة بإدارة مجموعة (G.SH.M)، أخذ يتأمل الأناقة والفخامة الظاهرة في كل تفصيلة من تفاصيل المكان، ذلك الجو الرسمي الصارم والدقيق الذي اعتاد أن يسميه بالـ(محفلط) زاد من نفوره وتوتره، فقد كانت شخصيته وطبيعة تكوينه على النقيض من كل ذلك.

إنه مهندس معماري مَن تعامل معه وصفه بالبراعة، ولكنه أيضًا أثار تعجب واستنكار زملائه بسبب تصرفاته التي بدت لهم شاذة، فقد كان مصدر إزعاج لكثير من أصحاب المصالح سواء من زملائه أو المنتفعين من التسهيلات المقدمة مقابل بعض الأموال.

فقد كان يدرس أي مشروع عقاري من خلال التصاميم الهندسية، فإذا وجد بها ما يعيب أو شعر بريبة، يرفض المشروع مهما كان وراءه من أسماء، وكانت له مقولة يرد بها على منتقديه (طالما إن مفيش حد كاسر عيني يبقى أعمل الصح وأحط صباعي في عين أي حد).

– مستر خالد، مستر مراد في انتظار حضرتك.

قاطعت السكرتيرة أفكاره، فنهض وسار خلفها إلى مكتب مراد الغامري، ابتسم باستخفاف، وهو يتابع من فوق نظارته الثوب الأزرق الضيق والقصير جدًا للسكرتيرة، وأخذ يحادث نفسه: «أنت لو اشتغلت معانا في الحي أسبوع واحد نسبة الغياب تبقى صفر وكل الموظفين تشتغل من نارومفيش تزويغ بدل ما رئيس الحي عمَّال يدور على الموظفين ومش لاقي».

وخلال ممر طويل نسبيًا تسلى فيه بمتابعة رشاقة السكرتيرة وليونة عجيزتها وحركتها المتناغمة والمتناسقة مع صوت كعبها العالي، حتى وصلا إلى حجرة رئيس مجلس الإدارة، حيث وقف مراد خلف مكتبه يستقبل خالد بترحاب ويصافحه بحرارة قائلًا: «طبعًا أنت عارف مفيش حد بيقابلني من غير ما يكون في ميعاد سابق، وغالبًا بيكون متحدد بفترة كبيرة، لكن لمَّا بلغوني إنك هنا قولت إيه المفاجأة الجميلة دي، ولغيت كام ميعاد عشان نقدر نقعد على راحتنا».

خالد ببرود: «صدقني أنا زعلت للمواعيد اللي اتضربت لأني مش ناوي أخد من وقتك كتير، أنا عاوزك في كلمتين مش أكتر».

تحرك مراد من خلف مكتبه ليجلس أمام خالد ليمنح اللقاء بعض الحميمية: «أنت بتقول إيه يا بشمهندس، هو أنت غريب؟! ده أنت أبو نسب».

ثم التفت إلى السكرتيرة: «مش عاوزحد يقاطعنا لأي سبب».

ساد الصمت للحظات حتى قطعه خالد متسائلًا بحدة: «أنت زُرت بيتي ليه، وعاوز من شاهيناز إيه؟

تساءل مراد ببرود: «هو أنت ناسي إن شاهينازدي تبقى أختي؟!

ثم نهض إلى خلف مكتبه وهو يقول : «يا خالد أنا جيت البيت وكل غرضي إني أعوض أختي عن اللي حصل لها قبل كده من بابا، عاوزها ترجع تعيش معايا في القصر زي زمان، خلاص اللي حصل حصل وجوازكم بقى أمر و اقع أنا فاهم ده كويس وعشان كده أنا بقدم لك العرض ده».

ومدَّ يده بملف صغير به عِدة أوراق تناولها منه خالد وأخذ يطالعها ومراد يتابع: «ده عقد عمل معايا هنا في المجموعة، هتلاقي عندك خانة في آخر العقد اكتب فيها المبلغ اللي أنت عاوز تقبضه في الشهر، هتقبضه ولكن بالدولار، مع وعد منى إن أول ما تدخل معانا في مود الشغل عقدك يتطور وتمسك مركز إداري يليق بزوج أخت رئيس مجلس إدارة مجموعة (G.SH.M)».

خالد وهو يقلب الأوراق بين يديه: «أنت متأكد إن العرض ده مناسب ليا؟».

ابتسم مراد بثقة لأنهما وصلا سريعًا لنقطة المساومة على الر اتب فأشار لخالد على ملف كبير على مكتبه: «اسمع يا خالد الملف ده فيه كل حاجة عنك، شغلك، مرتبك، اهتماماتك، أسرتك وأصحابك، و أكيد العرض اللي بقدمه ليك أكبر بكتير من المبلغ اللي

بتاخده في الحي».

خالد بتحفز: «ده أنت بتر اقبني بقى».

مراد: «مش بالمعنى ده، لكن شغلي علمني إني لازم أكون و اقف على أرض صلبة و أنا بتعامل مع اللي حواليا، على العموم حط المبلغ اللي أنت عاوزه ومش هنختلف».

ابتسم خالد وهو يُعيد الأوراق إلى مراد ويشير إلى الملف الكبير قائلًا: «أنا لو منك أرفد اللي جمع لك المعلومات دي كلها؛ لأنه لو كان دقيق في شغله كان بلغك إن مرتبي حوالي 2500 جنيه و إني سعيد ومستمتع بعيشتي، ولمَّا تفكر انك ممكن تشتريني بفلوسك عشان أقنع مراتي إنها تبيع مبادئها وكل اللي اتعلمته تبقى غلطان، عشان مش هاقبل إني أبقى جوزالست اللي بتصرف عليه ولا أقبل إن مراتي تعيش حياة غير اللي أقدر أوفرها لها».

مراد بهدوء: «اسمعني يا خالد أنا يمكن مش أكبر منك بكتير لكن شوفت أكتر منك مليون مَرة، أنت عارف لعبة الشطرنج الوضع و أنت باصص من فوق على القطع الصغيرة وبتتحكم فيها غير لمَّا تكون قاعد تحت، أنا بحُكم وضعي وعلاقاتي بكون دايمًا فوق شايف الصورة وبتحكم فيها، حاول تراجع نفسك لأنك بتضرب راسك في الصخر وبتدمر نفسك، طبعًا أنت حر في روحك».

ثم استكمل بعنف وهو يشير له بيده محذرًا: «ولكن مش ممكن أسمح لك أبدًا إنك تدمر أختي معاك».

بادله خالد نظرة متحدية وهو يقول: «وأنت كمان اسمعني كويس يا مراد، لو اتعرضت لمراتي أو ليا مَرة تانية أنت عمر خيالك ما هيوصلك أنا ممكن أعمل فيك إيه، وخلي بالك الحاجات الصغيرة اللي أنت بتشوفها من فوق أحيانًا مش بتكون ظاهرة ليك بسبب صغرها لكن هو ده سبب خطورتها».

ونهض و اقفًا و انصرف من أمامه والغضب يعصف بكليهما.

***

خرج خالد مندفعًا من حجرة مكتب مراد وهو في حالة غضب عارمة حتى أنه كاد أن يصدم تلك السيدة التي كانت تمر بجواره، فتمتم معتذرًا بصوتٍ خافت، فوقفت السيدة تتأمله لثواني وهي تعقد حاجبيها الرفيعان بغضبٍ وأكملت طريقها دون أن تعيره اهتمام، حتى بلغت باب مكتب مراد ودون أن تطرقه فتحته بعنف، حيث كان مراد ما زال و اقفًا خلف مكتبه يحاول أن يسيطر على انفعالاته.

فما أن وقعت عينيه عليها حتى انتفض غاضبًا من جديد وهو يصيح: «أنتِ مين اللي سمح لك تدخلي المكتب هنا؟!».

وهمَّ بالضغط على زر أمامه لولا أن صاحت به السيدة: «اهدى كده يا مراد لا يطق لك عِرق، بطل هبل و اقعد واسمعني كويس أنا مش جاية أهزر معاك، أنا جاية عشان مصلحتي ومصلحتك».

تساءل مراد باستنكار: «و أنا إيه اللي يخلي مصلحتي ومصلحتك واحدة ؟ بقول لك إيه أنا مش فايق لتخاريفك دي».

السيدة وهي تتقدم بثقة: «اللي يخلي مصلحتي ومصلحتك واحدة حاجات كتير، لكن عشان تفهم يبقى لازم تقعد وتسمعني كويس».

ثم تابعت وهي تشير إلى المقعد الذي أمامها: «وقبل كل ده تكلمني زي أي جينتل مان محترم وتقول لي اتفضلي يا هانم، يا روان هانم».

***

عاد خالد إلى شقته بعد لقائه مع مراد، سار خطوات حتى ألقى بجسده على أقرب مقعد صادفه وأشعل سيجارة وتنفس دخانها وزفره بشدة وهو يخاطب نفسه: «الكلب فاكر إنه ممكن يشتريني بفلوسه، كان غيره أشطر، أنا لو عاوز كنت عشت ملك، أراضي وعقارات وفلوس ما ليها آخر، لن يكلفني الأمر إلَّا بعض الصهينة، الموضوع بسيط، لا يمنعني منه إلَّا حب البلد، مُثل وقيم نشأنا عليها، قضايا وطنية انخرطنا بهمومها وشغلت أحلى أيام عمرنا، ثم يأتي هذا اللئيم ليراودني عن نفسي بوظيفة مريحة ومرتب مجزي، ملعونة تلك الوظيفة وملعون هذا الثمن».

نهض من جديد وتحرك إلى حجرته، فتح بابها فلم يجد شاهيناز أو يستمع لزقزقات صغيرته، ظنَّ أنها قد تكون ذهبت إلى الجمعية التي تشرف عليها لأمرٍ هام وقد أخذت معها الصغيرة، أو تركتها عند جارتهم، لاحظ الورقة الصغيرة الموضوعة بجوار الأباجورة بجانب

الفِراش، أمسكها بين يديه وقرأ بها: «حبيبي خالد، تعودت منك تمسكك بالحرية في كل أمورك، تعلمتها على يديك، استنشقت عبيرها من أنفاسك، كانت عنوانًا لحياتنا معًا، أشعر الآن أنك تقوض تلك الحرية، وتعاملني كأني ما زلت معدومة التجربة قاصرة الرؤية أو كأنك تملكني، وهو شيء لم أعتده معك من قبل، سأخوض التجربة و أتحمل نتيجة اختياراتي، لا تضن عليّ بمشورتك، فما زلت تلميذتك التي تستقي منك خبراتها.

المخلصة لك إلى الأبد شاهيناز».

***

–15–

لم يكن الجديد في هذه المواجهات حدة العنف
ووحشيته فحسب،
بل قبول الناس له وتعاونها معه!
–عز الدين شكري فشير–

15 ديسمبر

يومان قضاهما طارق في قلقٍ وترقبٍ كبير، منذ أن أعطى اللاب توب لصديقه أمجد وحكا له كل شيء يتعلق بالجهاز الذي يريد فك شفرته، وحذره من أن يُعلِم أحد بوجوده لديه لخطورة المعلومات التي على الجهاز وخطورة أصحابه وطالبه بسرعة فك شفرته حتى يسرعوا بالتخلص منه.

وبعد يومان وحين دقت الساعة العاشرة مساءً فتح طارق باب شقته مضطربًا من الثقل النفسي للحقيبة التي يحملها بحذرٍ كبير، تبادل مع زوجته نظرة فهمت منها أنه قابل صديقه أمجد وأخذ منه اللاب توب.

دلف طارق إلى حجرته ووضع الحقيبة داخل دولابه، قضى بين أسرته ساعتين تناول خلالهما العَشاء ومارس بعض اللهو والمرح مع صغاره لعلّه يتخفف من العبء النفسي الذي يجسم عليه، حتى ذهب الأطفال إلى فراشهم وساد في البيت الهدوء..

سحب الحقيبة من مكمنها ووضعها برفق على المنضدة وبدا في إخراج الجهاز وتشغيله.

لحظات وبدت أمام عينيه شاشة الويندوز وقد ترصت عليها الملفات مفتوحة كقلب صديق، تملكته الرهبة والقلق وهو يتذكر كلمات صديقه أمجد وهو يعيد له اللاب توب ويعتذر على تأخره لأن التشفير المعقد للجهاز كان يحتاج إلى برامج خاصة مدفوعة الأجر من شبكة الإنترنت، لكن المشكلة أن الـ(CREDIT CARD) الخاصة به تحتاج إلى إعادة شحن من البنك، لكنه في الأخير طمئنه على نجاحه في فك باسورد الجهاز وملفاته.

وبدت على وجه أمجد السمح الضاحك دائمًا علامات الجدية المفرطة وهو يستحلفه أن يتخلص من هذا الجهاز ويعيده في أسرع وقت خشية أن يصيبه مكروه، فهم طارق دون أي تصريح من أمجد أنه حين فك باسورد ملفات الجهاز اطلع على بعض محتوياته وأدرك مدى الخطر الذي يمثله هذا الجهاز بوجوده بين أيديهم.

زفر طارق لينفض عنه مشاعر القلق وزوجته تقترب حاملة كوبين من الشاي وتجلس بجواره، ولعدة ساعات غاصا في قلب تفاصيل العالَم السري لجودت الغامري، تعجبا من قدرة صاحب المجموعة وتحكمه في قدر ليس بالقليل من ناتج الاقتصاد العالمي.

مصري واحد هو المالك لكل هذا العدد من الشركات المنتشرة في معظم دول العالم، توقفا أمام ملف (Construction) مقاولات يحتوي على العديد من المشروعات الكبرى المنفذة والجارية التنفيذ

داخل معظم الدول العربية، أوروبا والولايات المتحدة وإسرائيل.

وجدا الملف مصاغ باللغة العبرية هكذا رجحا، وهناك أيضًا هوامش كُتبت بالإنجليزية ترجمتْها جيهان في سرعة و انفعال، الشركة هي المسئولة عن توريد الأسمنت لإسرائيل، الأسمنت الذي تم به بناء الجدار العازل والذي قسم فلسطين وحَجَّم الانتفاضة الفلسطينية أواخر التسعينات.

زاد شغف طارق للحصول على مزيد من الأسرار فمدَّ يده وفتح ملف أخر مكتوب عليه (Medical) طبي، فأزاح اللاب ناحية جيهان كي يمنحها رؤية أفضل، فتدخلت بسرعة ومهارة، ظهرت صفحات متعددة تحتوي على تقارير بعدة لغات بينهم الإنجليزية، أخذتْ تُحلل التقارير المتعددة فوجدت أنَّ أغلبها متعلق بشركات الأدوية للمجموعة والمنتشرة في أكثر من مكان حول العالم ومنهم مصر.

وجدتْ أنَّ الموضوع متشعب ويحتاج لمزيد من الوقت حتى تستفيض في دراسته فنظرت إلى الساعة المُعَلقة على الحائط لكن نظرة منها لعين طارق جعلتها تبتلع كلماتها وتستأنف عملها بانهماك.

***

16 ديسمبر

انتفض أمجد فزعًا من نومه إثر سماعه جلبة في ردهة منزله، على الرغم من أنَّ الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا، لكنه في تلك الليلة حين استلقى على الفراش تملَّكه الأرق من شدة قلقة وتوتره،

لقد نجح في فك شفرة اللاب توب الذي جلبه له طارق، لكنه وقبل أن يعطى الجهاز لطارق احتفظ لنفسه بنسخة من البيانات، ليس لشيء إلَّا ليروي فضوله، وبحسب المثل الإنجليزي فإن الفضول قد قتل القط.

فجأة أُضيئت أنوار الغرفة و اقتحم أربعة ملثمون ضخام الجثة غرفة نوم أمجد فصرخت زوجته فزعةً: «بسم الصليب».

فهجم عليها أحد الملثمين وكمم فمها، حاول أمجد أن يقاوم بكل ما يملك من قوة حتى أنه تمكن من انتزاع لثام أحد مهاجميه مما أصاب صاحب اللثام بالجنون وتكالب عليه هو وزملاؤه الآخرين فكبلوا حركته وكموا فمه هو الأخر وحملوه حملًا مع زوجته حتى دخلوا به الغرفة التي يعتبرها قدس أقداسه.

ألقوهما على أرضها حيث وجدا إلى جوارهما ابنتيهما الصغيرتين، حاول الصراخ مستغيثًا لكن منعه القيد الذي يُكبل فمه، حتى اقترب منه الشخص الذي نزع أمجد لثامه، فأنزل القيد من على فمه، فصرخ أمجد: «أنتوا مين؟ وعاوزين مننا إيه؟ يالا، فكني، فكني يا كلب إنت وهو».

لطمه الرجل على وجهه بعنف وأمسك بشعره وهو يقول له بصوتٍ مليء بالقسوة والبرود: «أوعى تفتكر إن كشفك وشي هيعدي على خير، لولا إن التعليمات اللي معانا إننا نحافظ عليك عشان تتكلم باللي احنا عاوزينه منك كنت قطعت لك لسانك، كلمة غلط كمان وهنسى كل التعليمات اللي عندي».

ثم ترك شعره من يده بعنف وهو ينظر له بعينين صارمتين وقال: «هو سؤال واحد تجاوبني عليه من غير لف ولا دوران».

ثم تابع بلهجة قاطعة: «فين اللاب توب؟».

ابتلع أمجد لعابه بصعوبة ثم قال: «الأجهزة كلها قدامك شوف اللي أنت عاوزه فيهم».

حملتْ لهجة المُقَنع نبرة سخرية وهو يقول: «أنت شكلك ناوي تتعبنا يا أبو الأمجاد».

ثم تركه وتحرك من أمامه وهو يقول: «على العموم التعليمات اللي معانا تخصك لوحدك لكن مراتك وبناتك مفيش حاجة بخصوصهم، براحتك الليل قدامنا طويل».

وأمسك زوجته من شعرها وشدها إليه بعنف، فصرخت من الألم بصوتٍ مكتوم بسبب الحائل الذي يكمم فمها، جرجرها حتى منتصف الغرفة دون أن يعبأ بصراخ ابنتيها الصغيرتين، وانطلق يكيل لها الصفعات والركلات بمنتهى القسوة والعنف.

كان أمجد ينتفض صارخًا في الغضب دون أن يعبأ به أحد، ولمدة عشر دقائق كاملة خارت فيها قوى السيدة حتى فقدت الوعي..

انهار أمجد يبكي من القهر والعجز، استدار الملثم من جديد إلى أمجد وانحنى يسأله ببرود: «ها يا أبو الأمجاد عرفت أنا بتكلم عن أي لاب توب؟».

كان أمجد لا يرفع عينيه الدامعتين عن جسد زوجته المرتجف أمامه من الألم والمليء بالكدمات والملطخ في أكثر من موضع ببقع من الدماء، وظلَّ صامتًا للحظات حتى قال أخيرًا باستسلام: «خلاص أنا هاتكلم و أقول كل اللي أعرفه».

***

عندما دوى صوت أذان الفَجر في المسجد القريب من شقة طارق كان هو وجيهان قد كونا فكرة كبيرة عن محتويات الجهاز الذي أمامهم، كانت النتيجة صادمة ومذهلة ولكنها حقيقة مثبتة بالوثائق والأرقام، فرأس مال شركة الأدوية يتجاوز الخمسة مليار دولار، وهي تعتبر إحدى كبرى الشركات العالمية متعددة الجنسيات، يقع مقرها الرئيسي بفرنسا.

لكن الأخطر هو أنَّ الشركة أحيانًا ما تقوم بتوزيع الدواء للجمهور قبل الوثوق من فاعليته إكلينيكيًا وفي الغالب ما تتم التجربة فعليًا على البشر ومر اقبة التقارير الطبية من مدى فاعليته أو فشله، وتتم التجربة في معظم الأحيان بمنطقة الشرق الأوسط وبالأخص مصر قبل الشروع في استعماله داخل أوروبا وأمريكا.

وتذكر بعض التقارير أنَّ في أحد تلك التجارب وبعد استخدام دام لقر ابة العام لاحظ المتابعون انتشار حالات الإصابة بالسرطان لمعظم من تناول الدواء، وحين قرأت جيهان اسم الدواء، لم تستطعْ كتمان الصرخة التي انطلقت من حنجرتها... فقد كان هذا الدواء يتناوله والد طارق لمدة على أنه علاج للضغط قبل وفاته بعامين

وبعدها أُصيب بالمرض الخبيث الذي أودى بحياته، وانهمرت دموعها تعانق عَبرات زوجها وهو يتذكر رحلة الشقاء التي عاشها مع والده لعام كامل بين المستشفيات والمراكز العلاجية دون جدوى.

كان يرى جسد والده يذبل أمام عينه كل يوم دون أن يملك أن يقدم له شيء، ومع نهاية عام مُرهق ومضني جاءت النهاية حزينة ومُقبضة، حملت في أعقابها ظلال الموت حيث أسلم الجسد المنهك الروح.

تذكر كل ذلك و أيقن أنَّ حسابه مع ذلك الكيان أضحى حساب شخصي، تابع مع زوجته باقي التقارير المتعلقة بنشاط الشركة الطبي، والتي تذكروضع ميزانية خيالية للإنفاق للتعتيم على فضيحة الدواء القاتل و أثره، وميزانية أخرى للإنفاق على الدعاية المكثفة لتحسين مظهر الشركة أمام الرأي العام.

هناك أسماء كبيرة وبارزة مدرج كشوف حساباتها والمبالغ المُحوَلة لها، الأمر خطير ويتعدى كل التوقعات، ساعات من الذهول قضاها الزوجان حتى تجلتْ أمامهم الحقيقة بشكلها المُفزع، وفي صمت مليء بالاشمئزاز والغضب لملم طارق أوراقه المتناثرة على المنضدة وأغلق الجهاز.

***

–16–

الذين نحبهم من شدة قربهم
نشعر أننا نشاركهم القلب نفسه!
–نجيب محفوظ–

ما أن استيقظ طارق حتى أسرع يوصل الجهاز بالطابعة، وقام بعمل ملف ورقي من مستندات الفساد التي بالجهاز...

وفي المساء بعد إعداد كل شيء واطمأن إلى امتلاكه دليلًا ماديًا كاملًا عن فساد مجموعة (G.SH.M) ومُلاكِها، جلس وجيهان ليقررا الخطوة التالية.

مضتْ دقائق من الصمت، حتى قالت جيهان وقد بدا عليها الإنهاك من طول العمل المتواصل: «اتكلم يا طارق عاوز تقول إيه ومتردد؟».

ابتسم طارق بارتباك قائلًا: «للدرجة دي أنا واضح قدامك ومش قادر أداري حتى إحساسي!».

جيهان بنبرة حملت شيء من المرارة : «تخيل بقى! ما هي مش عِشرة يوم دي عِشرة سنين، يعني الموضوع مش نباهة مني ولا حاجة، تقدر تسميه معايشة مش أكثر».

وصمتت قليلًا وهي تتحاشى عينيه وتمتمت: «ويمكن في سبب تاني».

ثم أخذتْ نفسًا عميقًا وهي تنظر إليه وتقول بحسم: «يمكن لمَّا حد بيحب بجد مش بيشوف غير تصرفات اللي بيحبه، بيحفظها ويُعجب بيها حتى لو كل الناس كانت بتقول عليها تصرفات مجنونة أو سخيفة، لكن اللي بيحب ما بيشوفش غير الجمال في حبيبه، بيسلط عليه عينه وعقله لحد ما توصل روحه للتشبع الكامل من حبيبه، عارف بعد كده بيحصل إيه؟».

لم تنتظر إجابته وواصلت بانفعال: «بيشوف الدنيا بعين اللي بيحبه، بيردد نفس كلامه وبالطريقة اللي بيتكلم بيها، بيفكر بنفس طريقة تفكيره، بيعيشه، انت بالنسبة ليا حياة يا طارق، حياة أنا لا شوفت ولا عشت غيرها».

قالت كلماتها وأجهشتْ في البكاء فنهض طارق ممسكًا برأسها بين يديه وقبَّل جبينها وهو يقول صادقًا: «يمكن أكون شوفت كتير وعشت كتير، لكن أنا ما عشت ولا شوفت أنقى ولا أخلص منك، يا جيهان أنا ما منعني من شر نفسي غير ستر ربنا وحبي ليكي، عينيكي كانت معايا وشايفاني، عينيكي هي اللي حمتني وقت الخطر يا جيهان».

مسح دموعها براحته وهو يلثم وجنتيها بقبلات صغيرة، تسارعت أنفاسهما وهو يضمها في صدره العريض، استكانت نفسها وحاولت أن تبتسم من جديد وهي تقول: «خلاص يا حبيبي حصل خير، قولي بقى كنت عاوز تقول إيه ومتردد؟».

هزَّ طارق رأسه بعنفٍ نافيًا وهو ينهض قائمًا ويقول: «لا خلاص مفيش حاجة».

لكنها ألحتْ عليه فاستكمل حديثه وهو يعاود الجلوس على مقعده: «كل الحكاية إني بفكر إننا لازم نتخلص من اللاب توب اللي معانا ويتم الكلام ده بصورة سليمة تبعدنا عن أي مشاكل أو صدام مع الناس الفاجرة صحاب اللاب توب، فضلت أفكر في حل لقيت إن زي ما روان جابت اللاب توب تقدر برضو ترجعه بطريقتها، عشان لمَّا صحابه يدوروا عليه يلاقوه في مكانه، وبكده يكون لا من شاف ولا من دري، واحنا نمشي في طريقنا زي ما خططنا بالظبط».

وقفتْ جيهان قائلة بغضب: «تاني ست زفته يا طارق إحنا هنعيده».

طارق: «والله أنا ما عاوز أشوف وشها من أساسه، لكن قولي لي أعمل إيه في الموضوع ده؟ أحِله ازاي بس؟ أنتِ عارفة لو الناس دي شموا خبر إن جهازهم معانا هيعملوا فينا إيه، ما أنتِ لسه شايفة الناس دي قذرة قد إيه، يبقى لازم مفيش حد يعرف إننا طرف في أي موضوع يخصهم».

جيهان: «يعني هو أنتَ مش خايف من رد فعلهم لمَّا تفضحهم في الجهات الرقابية ويعرفوك؟».

طارق: «لا لأن في أكتر من طريقة نأمن بيها نفسنا، ممكن أشترط عدم ذكر اسمي في التحقيقات، وممكن يخصصوا لينا حراسة لحد

ما القضية تنتهي».

فكرتْ جيهان قليلًا ثم قالت له بحسم: «اسمعني يا طارق كويس، لو موضوع رجوع الجهاز ده هيكون عن طريق البنت دي يبقى لازم يكون كل حاجة قدامي».

نهض طارق وأحضر تليفونه المحمول فخطفته جيهان من يده وهي تقول بحدة: «هات كده، رقمها فين؟ أنا اللي هتصل عليها و أتفق معاها».

طارق معترضًا: «يا ستي طيب خليني أكلمها الأول وبعدين أديهالك، أنا خايف إنها تقفل أول ما تسمع صوتك وبعدين تقلق وتقفل تليفونها وما نعرفش طريقها بعد كده».

جيهان: «معلش أنا أصل عاوزاها تتخض ما أنا أصل صوتي بيخوف حبتين ولَّا يمكن حضرتك خايف عليها ولَّا حاجة».

كانت جيهان قد قامتْ بالاتصال بالفعل، لحظات حتى نظرت له في حيرة وقالت: «التليفون مغلق، أنتَ متأكد إن هو ده الرقم».

طارق: «طبعًا! هي اللي كتباه بنفسها ومش معاها غيره أصلًا، يمكن تكون الشبكة، ده حتى أمجد أنا عمال أكلمه من الصبح وتليفونه مغلق هو كمان، على العموم بكرة الصبح نحاول نكلمهم مَرة تانية».

***

–17–

الغدر لما حكم صبح الأمان بقشيش،
والندل لما احتكم يقدر ولا يعفيش!
–إبراهيم أصلان–

17 ديسمبر

استيقظ طارق على ابتسامة جيهان الرقيقة وهي تخبره أنها ذاهبة إلى عيادتها البيطرية، فأخبرها أنه لن سيذهب هو الأخر لزيارة أمجد في شقته حتى يطمئن عليه لأن تليفونه مغلق منذ الأمس.

غادرتْه للحظاتٍ ثم عاوده صوتها من باب الشقة تخبره أنَّ جرائد الصباح وصلت وأنها وضعتها له على المائدة بجوار الإفطار، ثم سمع صوت إغلاق الباب، نهض طارق متكاسلًا بعض الشيء، ارتدى ملابس خروجه، وجلس ليتناول فطوره وهو يقلب بروتينية وملل صفحات الجرائد دقائق حتى وقعت عينيه على الخبر:

«شهدت منطقة مصر الجديدة حادثا مؤسفا، حيث نشب حريق هائل بإحدى شقق المنطقة راح ضحيته أسرة كاملة، وقد أسرعت قوة من المطافئ وشرطة النجدة بالوصول إلى موقع الحادث، وذلك بعد أن قام أحد الجيران بالإبلاغ عن الحريق.

وقد تمكن رجال الإطفاء من السيطرة على الحريق قبل أن ينتقل إلى باقي شقق العمارة السكنية، ثم قامت قوة من رجال البحث

الجنائي بالمعاينة والتحري وكشف ملابسات الحادث، والتي أسفرت عن عدم وجود شبهة جنائية.

وبعد التحريات تبين أنَّ مالك الشقة محاسب يعمل مأمور بمصلحة الضرائب، وكان يخصص حجرة داخل شقته يقوم فيها بتجميع أجهزة الكمبيوتر وتصليح الإلكترونيات، مما أدى إلى حدوث ماس كهربائي، نشب على أثره حريق امتد لهيبه ليلتهم الشقة بأكملها ولم ينتبه له أي من القاطنين بالشقة لاستغراقهم في النوم.

وبعد معاينة شقيق مالك الشقة للجثث أقر بأنها لأخيه المحاسب أمجد مسعد كيرلس وزوجته و ابنتهما».

***

–18–

ما أُريده هو القوة على تحمل الأشياء بهدوء
أشياء مثل الظلم، سوء الحظ، الحزن،
الأخطاء، سوء الفهم!
–هاروكي موراكامي–

أحكم خالد أصابع يده حول لهيب القداحة وهو يشعل سيجارته بصعوبة من الهواء البارد الذي يهب من حوله في الطريق، سحب نفسًا عميقًا وزفره بقوة حمل معه كل ما يُكابده من غضب وضيق، لقد فقد في غضون أيام قليلة بيته، زوجته و ابنته، كان شخصًا متفائلًا بطبعه، وكان مصدر طاقة إيجابية وإلهام لكثير من المحيطين به، لكنه اليوم يئس من كل شيء.

لماذا لا يُراجع أفكاره من جديد، ليس هناك ثوابت بالكون، لماذا يُصر على أن يكون المبصر الوحيد في بلد العميان، يجب أن يفقأ عينيه كما فعل بطل رواية (هـ.ج) ويلز أرض العميان، سيفقأ عينيه ويضع مكانهما جوهرتين، فهل يرى؟ أم هي أشياء لا تُشترى، رحم الله الراحل الرائع أمل دنقل.

لماذا يُصر عقله وهو في تلك الحالة على أن يستلهم معطياته من الأدب ويسقطها على زمن ليس فيه أي أدب، كان يسير على كورنيش النيل والهواء البارد يلفح وجهه بزمهريره القاسي، ولكن غضبه و أفكاره الملتهبة شغلته عمَّا سواهما.

وحين فرغ من آخر أنفاس سيجارته ألقاها من يده وتوقفت أفكاره على صورة ابنته الصغيرة، وتساءل عقله باحثًا عن إجابة وسط حالة اليأس واللامبالاة التي تسيطر عليه، هل سيترك صغيرته هي الأخرى ويرحل دونها؟

إنه غاضب من شاهيناز زوجته ويرى أنَّ لها يدًا ولو دون عمد في إضعاف موقفه أمام أخوها بهذا الشكل، كان يجب أن تثق به وبآرائه أكثر من ذلك، لماذا تركته وحيدًا بعد كل ما كان بينهما ومرا به في حياتهما؟ كما أنه يستمد من وجودها السند والإيمان، من الجيد أننا حين يتملكنا اليأس والضعف، ونفقد ثقتنا بأفكارنا و أنفسنا، ننظر إلى مَن يؤمنون بوجودنا و أفكارنا وقدرتنا على التغير.

كان يكفيه نظرة واحدة من عيني شاهيناز، حتى تعود له ثقته بنفسه من جديد، فيقف صامدًا أمام الدنيا بأسرها، لقد كان وحيدًا بين أفراد أسرته الكبيرة، فريدًا في أفكاره، فقد كان كل من حوله يبحثون عن مقومات الحياة، أمَّا هو فكان يبحث عن أسلوب آدمي ليعيش في تلك الحياة.

لقد عمل في مهن شتى قد يراها البعض متدنية، لكنه مارسها بعزة نفس و إتقان، مع لغة حوار هذبتها ثقافته المتعددة، كان يُجبر كل من يتعامل معه على مبادلته الاحترام والتقدير، حتى حين دخل إلى الجامعة كان حوله العديد من الأصدقاء استحوذ على قلوبهم وحبهم لكنه كان وحيدًا حتى التقى بها، فتبددت وحدته وتلاشت عزلته.

كان لا يفكر في الارتباط، كما أنَّ له أهدافًا كثيرة يسعى إلى تحقيقها، وطموح كبير لا يريد أن يقوضه بارتباط أو قيد، لكنها شاركته عالَمه، فأصبحت أهدافه أهدافها، وطموحه طموحها، وصدقت في قولها، حتى جاء اليوم الذي أصبح للتلميذة طريقها الخاص بها وطالبت بحقها وحريتها في أن تسلك سبيلها.

كان يعلم أنه سيفعل كل ما فعلته لو كان في مكانها، هذه هي الحقيقة، وعليه أن يعترف بها، لكن ما ذنب الصغيرة فرح؟

مَرَّ بذهنه يوم ولادتها، كان ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر، لشدة خوفه على شاهيناز، والتي كانت تعاني صحيًا كثيرًا خلال فترة الحَمل، كما أنَّ هذا يعتبر أول مولود له، وكانت نشأته في أسرة متر ابطة رغم فقرها مكونة من عدد كبير من الأخوة والأخوات قد أكسبه نوع من الفخر بالعزوة والتقديس لمعنى العائلة.

ليلة الولادة ذهب مع زوجته لزيارة الطبيب، فأخبرهما أن يترقبا موعد الولادة آخر هذا الأسبوع...

وحين استيقظ في الصباح سأل زوجته عن صحتها وأطمأن على أنها لا تشعر بأي مخاض منتظَر، ذهب إلى عمله مرتاح البال، ساعتين ووجد هاتفه المحمول يرن، ويظهر على شاشته رقم المعلم صاحب القهوة، وما أن رد حتى سمع صوت المعلم يخبره صائحًا بصوته الجهوري بأن زوجته تلد، ويُطمئنه بأن نساء المنطقة كلها معها ويعتنين بها، حتى أنهم قد أرسلوا في طلب الست أم محمد الممرضة.

صاح به خالد أن ينتظروه ولا يتعجلوا بأمر أم محمد هذا، ولكن المعلم أخبره ألَّا يقلق، ولكن خالد لم يتمالك أعصابه، فانطلق مهرولًا إلى مسكنه، وما أن خطى إلى باب العمارة حتى سمع الزغاريد وشاهد التجمهر النسائي أمام شقته.

لم يكنْ هذا الجو العام من الحميمية غريبًا عليه، فقد عاشه ومر به مرات ومرات، لكنه يعلم جيدًا مدى بعده وغر ابته على ثقافة زوجته ونشأتها، كيف لابنة جودت باشا الغامري أن تلد على يد الست أم محمد ممرضة الحي الشهيرة، والتي تقوم بكل ما يتعلق بالطب بالمنطقة، فهي ملاذ البسطاء ممن لا يستطيعون تحمل مشقة الذهاب إلى الطبيب فضلًا عن تحمل أتعابه.

وحين دخل إلى حجرته انسحبت النساء حاملين معهن الأدوات التي كن يستخدمنها، وتعلو وجوههن ابتسامة مشفقة من نظرات اللهفة والقلق التي ارتسمت واضحة على وجه خالد.

ساد الهدوء المكان ووقف هو يتأمل أسعد وأجمل مشهد رآه في حياته، كانت زوجته غافية في هدوء وسكينة، تحتضن صغيرته التي أبت أن تشذ عن درب أبائها وأجدادها، فأتت إلى الدنيا على يد (داية) أو بشكل أكثر تمدنًا ممرضة بسيطة.

وبالطبع أبت عليه ثقافته المكتسبة إلَّا أن يتصل بالطبيب المعالج لحالة زوجته ويستدعيه ليطمئنه عليها وعلى صحة مولودته، لحظات وسمع طرقات على باب شقته وعندما فتح فوجئ بسيدات الحي و اقفات وهن يحملن بأيديهن أو اني متعددة تحتوي على طيور

متنوعة مطهية ومغمورة في حسائها الدسم.

ولمَّا لاح التعجب والتساؤل على وجه خالد، كانت إجابة النساء البسيطات: «الحاجات دي عشان الست النفسة تتأوت».

سادت فرحة عارمة الحارة كلها بالمولودة الجديدة، وعُلق أكثر من فرع نور، واستمر أكثر من محل في إذاعة أغاني الأطفال المبهجة، حتى قهوة المعلم وزعت على روادها الشربات والمغات، وعندما حاول خالد أن يقوم بتسديد تكلفة كل تلك الأشياء أو حتى جزء منها، كان الرد القاطع له: «ده مش من بَعد خيرك على الحتة يا باشمهندس».

كانوا يشعرون بأنه صاحب فضل على منطقتهم، أمَّا هو فقد كان موقنًا من أنه لم يُقدم للمنطقة إلَّا ما هو بعض من حقهم، فهو لم يفعل إلَّا واجبه ووظيفته، وعندما رأى نظرة الامتنان والسعادة والحُب في عيون كل المحيطين به، أيقن أن أحلامه و أفكاره عن العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والحرية ليست محض هِراء أو خيال، بل هي أفكار تقبل التحقيق، حينها شعر بفرح حقيقي، وعلم ماذا سيكون اسم ابنته، (فرح).

وعندما وصلت به أفكاره إلى تلك النقطة، التهبت مشاعره بغضبٍ لم يعتده من قبل، وشخص بصره إلى اتجاه واحد، وسيطرت عليه فكرة واحدة، ملكت عليه وجدانه، وحركت كل كيانه وإرادته.

***

خرج طارق من كنيسة ماري جرجس بمصر الجديدة قبل أن ينتهي القُداس والصلاة على روح صديقه أمجد وأسرته، لم يستطعْ الصمود أكثر من ذلك، لفح وجهه الهواء البارد من جديد، سرت في جسده رعشة خفيفة لكنه ظلَّ و اقفًا على سلالم الكنيسة تطل من عينيه نظرة خواء، كأنه لا يدرك إلى أي مكان يذهب أو يحرك قدميه، بل كان حقًا لا يستطيع أن يُحرك قدميه من ثقل وهول التجربة التي خاضها منذ قليل.

لقد دخل من أبواب الكنيسة برفقة الشاب الذي أصطحبه معه في سيارته، خطى خطوات قليلة حتى وجد أربعة صناديق لا يفصله عنهم سوى بضعة أمتار، سار مسلوب الإرادة وسط الترانيم والصلوات، صعد سلم صغير وقد بدا وجوده يلفت أنظار الحضور، تحرك بضع خطوات أخرى حتى وقف مباشرةً أمام الصناديق الأربعة مختلفة الأحجام.

جثا على ركبتيه أمامهم، تعلقت به أبصار الحضور، وتوقفت كل الأصوات من حوله، همَّ بعض الحضور بالتدخل لكن منعتهم نظرات القساوسة المحذرة من حدوث هرج يتنافى مع آداب وقداسة المكان والمطمئنة في ذات الوقت بأن الأمور لم تخرج بعد عن السيطرة.

لكن طارق كان في عالَم أخر غير مدرك لِما حوله، بل غير متحكم في تصرفاته ذاتها التي يقوم بها، انتابه بكاء هستيري وهو ينظر إلى الصناديق المتراصة أمام ناظريه، وتكلم بنبرة منخفضة وصوت محتقن غير واضح من أثر البكاء: «سامحني يا أمجد، أنا السبب في كل اللي حصل ليك ولأسرتك، أنا اللي دخلتك في موضوع مالكش فيه

ذنب، سامحني يا صاحبي أنت طول عمرك كنت الطيب المسالم عايش بس عشان تسعد أسرتك، أسرتك اللي جيت بتهوري هدمتها وقضيت على أحلامها، سامحني يا أمجد أنت عارف إني مش هقدر أتحمل وذر اللي حصل».

مسح بظاهر يده دموعه المتساقطة بغزارة وهو يثبت عينيه على الصندوق الذي أمامه ويتابع حديثة الخافت: «سامحني يا أمجد وأوعدك إن اللي حصل لك مش هيعدي أبدًا، هاكشف قدام العالَم كله حقيقة اللي حصل لك وحقيقة اللي عمل فيكم كده».

ثم تجمدت نظرته وأطل من عينيه غضب عارم وهو يقول: «أوعدك أنا مش هتخلى أبدًا عن حقك حتى لو كان تمن ده حياتي».

ونهض على قدميه من جديد ثم انحنى وقبَّل التابوت أمامه ثم انسحب من القاعة كلها، كانت كلماته خفيضة نبراتها غير مفهومه من أثر البكاء، فلم يتبين أي من الحضور كنهها إلَّا قس شاب سمع معظم ما قاله طارق لوقوفه بالقرب من صناديق الضحايا، ظلَّ يتطلع إلى طارق وهو في طريقه إلى خارج القاعة وقبل أن يبلغ باب القاعة رفع القس يده بالصليب تجاهه وتمتم بصلاة خفيفة دعا فيها من أجل حماية طارق وأن يوفقه الرب في تحقيق ما وعد.

وعندما خرج طارق من قاعة الكنيسة كانت مشاعره تلتهب بغضب لم يعتده من قبل، وشخص بصره إلى اتجاه واحد، وسيطرت عليه فكرة واحدة ملكت عليه وجدانه، وحركت كل كيانه وإرادته.

***

–19–

الكراهية هي أن تبتلع السموم أملا
في أن يموت شخص آخر!
–أنيس منصور–

اقتحمتْ روان أبواب مكتب مراد عنوة وتقدمت من مكتبه بخطوات عصبية سريعة، ألقت روان على مكتب مراد بجريدة كانت بيدها وهي تقول بحدة: «قول ليا إنك مش أنت اللي ورا الخبر ده».

تراجع مراد بظهر مقعده للخلف وهو يقول: «هو أنتِ منتظرة مني أعمل إيه مع ناس سرقتني يا هانم، مش مراد الغامري اللي يتلعب معاه، واللي عاوزيلعب يبقى يستحمل».

صرخت روان: «تقوم تقتلهم يا مراد، أنت مش ممكن تكون بني آدم، أنت وَحش، وَحش معدوم القلب والضمير».

اعترض مراد وهو يشيح بوجهه عنها: «هو نصيبهم كده، الناس كان عندهم تعليمات يجيبوا اللاب توب ويرجعوا، لكن أمجد عمل فيها مفتح وكشف وش الـ (Body Guard) وده ما ينفعش يتكشف لأنه ساعتها كان هيجيب الكل في رجليه، المهم أنتِ بس تهدى وتبطلي هلفطة بالكلام لتحصليهم».

صرخت روان: «أنت لسه شوفت حاجة، أنا مش هسكت على الجريمة البشعة دي، أنا هفضحك واكشفك قدام العالَم كله».

انتفض مراد و اقفًا وقطع المسافة الفاصلة بينه وبين روان في خطوتين وصفعها بيده على وجهها صفعة مدوية ارتج لها جسدها كله، ثم أمسكها من ذراعيها بقوة بالغة وأطلت من عينيه نظرة مخيفة زلزلت كيانها وهو يقول: «مش أنا اللي واحدة زيك تهدده على أخر الزمن، ما تدّعيش الشرف و أنتِ غرقانة في الوساخة، مش أنتِ اللي جيتي عندي هِنا وقولتي ليا إن اللاب وقع بالصدفة في إيد الولد بتاع الضر ايب وهو بيفحص مستندات المجموعة، قام سرقه ووداه لزميله أمجد عشان يفك شفرته».

تركها تتهاوى على مقعدها من جديد وجلس على الكرسي المقابل لها وهو يقول: «طبعًا أنا كلت كل الهري ده بمزاجي عشان أعرف كل اللي عندك، بس اللي أنتِ مش عارفاه إني عامل ملف لكل كلب بتعامل معاه من يوم ما اتولد لحد ما حظه الأسود وقعه في طريقي.

أنا عارف إن أنتِ اللي وديتي له اللاب توب، بس اللي لسه مش عارفه أنتِ قلبتي عليه مَرة واحدة كده ليه، شكله نفضلك، مش مهم السبب، المهم إنك جيتي ليا هِنا وحكيتي على كل حاجة، وسخنتيني عليهم، دلوقتي جاية تلوميني وتعملي بريئة، لا يا هانم أنتِ شريكة زيك زي في كل حاجة، فبلاش نلف وندور على بعض، أنا ما عملتش غير اللي أنتِ طلبيته مني».

أجهش صوت روان ببكاء مختنق وهي تقول: «أنا ما طلبتش منك تقتل حد، و أنتَ كنت عارف إن اللاب توب مش بيفارق إيد أبوك».

مراد: «فعلًا كنت عارف إنه مهم وكنت بدور عليه في كل مكان،

لحد ما أنتِ قولتي لي على مكانه، وعشان كده أنا كافأتك وهدي لك حقك في التركة».

وشبك أصابع يديه أمام وجهه وهو يتابع: «وعشان تتأكدي إني طيب أنا لسه فاكر وعدي ليكي إني أحافظ على حياة الدنجوان بتاعك، لكن لازم تفهمي وتفهميه إن صبري ليه حدود، للأسف أمجد اعترف للرجالة إنه رجع اللاب توب لطارق».

نهضت روان مصعوقة: «لو الجهازده عند طارق أنا ملزمة أرجعه ليك، لكن إبعد عن طارق، أنت سامعني يا مراد، كل واحد فينا عنده حاجة لو خسرها يبقى خلاص مفيش حاجه بتكون فارقه معاه، الحياة بتتساوى بعدها مع الموت».

ابتسم مراد ابتسامة صفراء وهو ينظر لها قائلًا: «لو هو صحيح زي ما بتقولي كده يبقى خلاص ورينا شطارتك وحاولي تبعديه عن طريق القطر عشان ما يتفرمش».

***

في خطوات هادئة لا تشي بانفعال صاحبها أو اضطرابه، سار خالد إلى بوابه القصر الذي تقطن به زوجته، وما أن دنا منها حتى وجد في مواجهته أربعة من حراس البوابة، يمسك واحد منهم بزمام كلب حراسة ضخم، ويتدلى من أوساطهم الأسلحة النارية، تطلع خالد إلى كتيبة الاستقبال تلك بلا مبالاة وهو يسألهم عن شاهيناز، فنظر له أحد الحراس نظرة متفحصة وقال: «حضرتك مين يا فندم؟».

تلقفه خالد بنظرة ساخرة وهو يقول: «أنا أبقى جوز الست يا حبيبي».

لم تشي ملامح الحارس الجامدة بأي انفعال وهو يخبره بأنها غير موجودة ولا يعلم متى ستعود، تخطى خالد الحارس يريد أن يدخل القصر فسد عليه الحارسان الآخران المدخل وتحفز الكلب نابحًا، فصاح خالد ثائرًا: «أنت عاوزني أخد ميعاد يا لوح أنت عشان أشوف مراتي وبنتي؟ و أنت مين أنت عشان تقولي أعمل إيه وما أعمل.»

كان خالد يكمل عبارته لكن صوته قد ضاع وسط الصرير الصاخب الذي صدر من عجلات السيارة التي اقتحمت المشهد بغتةً، وفي لحظات كانت تندفع بجنون تجاه البوابة الشاهقة، حاول بعض الحراس إخراج سلاحهم من مكمنه، لكن اندفاع السيارة المباغت لم يمهلهم، فقفزوا متفادين الارتطام، في حين واصلت هي اندفاعها الجنوني لتخترق البوابة وتقتلعها بصوتٍ مدوٍ.

سادت حالة من الارتباك للحظات بين طاقم الحرس، ثم اندفع أكثر من عشرين منهم حاملين أسلحتهم محيطين بالسيارة من كل جهاتها الأربع، لم يطلْ انتظارهم أكثر من خمس ثوانٍ، وفُتح باب السيارة ليصدم أقرب الواقفين بعنف، ويخرج طارق مندفعًا كالليث الغاضب، ممسكًا في يده نبوت في مواجهة كل الرجال والأسلحة المحيطة به.

كان لظهوره المباغت وقع الصدمة بالنسبة لهم، فتملكهم ذهول منحه قوة المبادرة، فأطلق نبوته ليطيح بفك أحد الحراس

وهوى على رأس أخر بضربة عنيفة، ثم لوَّح بالنبوت الذي بيده بمهارة وضرب به حارس أخر، فأصابت الضربة بطنه، فانحنى من الألم، وأسقط المسدس الذي كان بيده، فأسرع طارق ينحني ليلتقطه، لكنه تلقى ضربة قوية على مؤخرة رأسه، حاول الاستقامة من جديد، لكنه تلقى ضربة أخرى أظلمت لها الدنيا أمام عينيه.

***

–20–

لا تستطيع الغيرة أن تبصر الأشياء
أكثر مما يبصرها الحب!
–جورج إليوت–

كانت الساعة التاسعة مساءً حين نزلت روان من سيارتها، أخذت تفكر للحظات وقد سيطر عليها مشاعر متباينة بين الإقدام والإحجام حتى حسمت أمرها، وبخطوات متوجسة تقدمت إلى مدخل العمارة، ووقفت أمام بوابها وسألته: «الأستاذ طارق الجارم ساكن في الدور الكام لو سمحت؟».

البواب وهو يتطلع لها بفضول: «الدور التاسع يا فندم».

دلفت روان إلى المصعد وخلال رحلة الصعود مَر بها ذكريات الساعات المنصرمة بعد خروجها من مكتب مراد.

في حين أنها اتصلت بطارق أجابها جرس مستمر دون رد، عاودت الاتصال حتى أجابتها رسالة صوتية تفيد بأن الهاتف تم إغلاقه، زاد توترها وقلقها فتركت المجموعة واستقلت سيارتها إلى مصلحة الضرائب التي يعمل بها طارق.

لم يأخذ الأمر منها سوى دقائق معدودة، تلقت فيها الإجابة الوافية على سؤالها عن عنوان طارق من رئيس المصلحة نفسه، وخلال ما تلا ذلك من وقت ظلت تهيم بسيارتها مفكرة، تلبَّسها صراع

نفسي مرير ومشاعر متناقضة، لقد كانت منذ ساعات تتمنى الانتقام من طارق جزاءً له لتخليه عنها، لكنها أول ما لمحت بعض التهديد في كلمات مراد واستشعرت الخطر يقترب من طارق، نسيت كل غضبها وحقدها.

تعجبت من مشاعرها المتناقضة، إنها تحاول منذ أن علمت بخبر موت أمجد أن تطرد عن نفسها هاجس يقض مضجعها، إنَّ دماء هذا الشاب وأسرته يقع على عاتقها، كيف تستطيع أن تحيى مع شعور كهذا؟

إنها لا تستطيع أن تتحمل أن يصيب طارق نزلة برد وليس أن يحدث له مثل ما حدث لأمجد، لم يمنحها مراد أي خيارات أخرى، إنه مصمم على هدفه، وهي تعلم جيدًا أنه لا يعير حياة خصومه وأرواحهم أي اعتبار، ليس هناك مجال للمساومة أو التهاون، هكذا قادتها أفكارها إلى أن وقفت أمام باب شقة طارق وفي هدوء ضغطت على جرس الباب.

***

لم يلبثْ صوت جرس الباب أن يغرد حتى فتحت جيهان باب شقتها على الفور، فقد كانت تنتظر دقاته بفارغ الصبر، لكن لهفتها تحولت إلى خيبة أمل ونظرة تساؤل يشوبها الحذر حين وقع بصرها على زائرتها التي تجهلها فتساءلت:

– أفندم؟

كانت روان غارقة في عالَم أخر من الأفكار، نسيت فيه كل قلقها وترددها وسبب زيارتها، توقف بها الزمن عند لحظة فتح باب الشقة ورؤيتها لجيهان، تفحصتها بدقة بالغة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، تأملت رأسها الصغير وقامتها القصيرة وجسدها النحيل، الإيشارب الحرير الذي عصبت به شعرها إلَّا خصلة سوداء ناعمة تحررت دون عمد من جانب الإيشارب القاتم لم تخف عن عيني روان المتحفزتين.

تأملت عينها السوداء الواسعة ولم يفُتها ملاحظة الاحمرار الذي يشوبها كأن صاحبتها كانت تبكي منذ قليل، تأملت أنفها الصغير العريض بعض الشيء، وبشرتها الخمرية المائلة للاسمرار، وجهها الذي لم تمسه أي من أدوات الزينة وقد بدا عليه الحزن والقلق.

عقدتْ مقارنة سريعة بينها وبين غريمتها، ويا للعجب كأنها صورة معكوسة منها، قالت لنفسها ساخرة كأنه حين ملَّ أكل التفاح تاقت نفسه إلى اللارنج، أمن أجل هذه تركها وذهب، أمن أجل هذه كسر خاطرها وحطم كبرياءها، ماذا فيها جذبه أكثر منها؟ أين قامتها القصيرة وقوامها النحيل من قامتها الممشوقة وقوامها ممتلئ الأنوثة والفتنة دون ترهل.

أتلك الشفاه الدقيقة الرقيقة تستطيع أن تقبل شفتيه وتلتهمه التهامًا كما كانت تفعل هي بشفاهها التي طالما غاب في شَبقِها، أهذا الصدر الصغير كصدر فتاة لم تبلغ بعد مبلغ النساء يستطيع أن يمنحه حين يريح رأسه عليه الراحة والدفء والاطمئنان كما كان يفعل على صدرها العامر مكتمل النضوج، أتلك السيقان الـ

– حضرتك عاوزة مين؟

أخرجها السؤال الملقى بنبرة حادة حانقة من أفكارها فأسرعت تسأل عن طارق، استبعدت جيهان توقعها وتساءلت:

– نقول له مين يا فندم؟

أجابت روان وهي ترفع رأسها بكبرياء: «قولي له روان فهمي».

عضت جيهان شفتها السفلى بغيظ مكتوم وضمت قبضتها اليمنى وصمتت للحظات مفكرة ثم فردت راحتها وهي تشير لها بالدخول.

خطت روان إلى داخل الشقة تتفقدها بفضول، بينما كانت جيهان التي تسير خلفها تتفقد غريمتها بنظرة متفحصة، لاحظت من أول وهلة التفاوت الكبير بين مظهريهما، تأملت زينتها الكاملة وملابسها الجريئة، ذكى أنفها عطرها النفاذ بماركته العالمية، العقد والأساور الألماس وخواتم الألماس التي تبرق من حول ضيفتها.

شعرت ببعض التضاؤل في نفسها، لم تكنْ جيهان في حقيقة الأمر تعير تلك المظاهر الاهتمام الكبير، ولم يكنْ ترفُعها هذا عن فاقة، فقد كان نصيبها من إرث والديها المتوفيين الشيء الكثير جعلها جدها تحت تصرفها منذ اليوم التي زفت فيه لطارق، لكنها تركتها في حسابات بالبنوك أو ظلت أطيان وعقارات يباشرها جدها وينقل ريعها إلى حساباتها على فترات.

في حين كان طارق يتكفل بمتطلبات البيت والأبناء من خلال راتب وظيفته وإرثه من أبيه، لم يكنْ المال في يوم من الأيام محل خلاف أو نزاع إلَّا في مَرة واحدة، حين انتوت أن تفتتح مركزًا بيطريًا خاص بها وأرادت أن تتحمل تكاليف تأسيسه، لكن طارق أبى ذلك؛ لأن إعداد ذلك المركز يعد من مسئولياته، فهو أمر يخصها ويعلم جيدًا مدى سعادتها به، وأنه منذ زواجهما لا يحيا أو يفكر إلَّا فيما يحقق لها قدرًا ولو بسيطًا من السعادة، فهو وما يملكه لا يساوى شيء مقابل نظرة رضا تطل من عينيها.

ابتسمت وهي تتذكر تلك الكلمات وتشير إلى محدثتها بالجلوس، وتعجبت لماذا لم تعد ترى غريمتها بذلك البريق الذي كان يتراءى لها منذ لحظات، اجتاحتها موجة من الثقة بالنفس حين تيقنت أنَّ التباين الكبير بينهما هو ما يميزها ويجعل كفتها ترجح دائمًا.

شاهدت غريمتها كعروس المولد براقة مبهرة تسر الناظرين، لكنها خاوية العقل معدومة الإحساس، أما هي فتشبه الأرض التي جاءت منها، واهبة النماء والخير والعطاء، هي تصون ولا تخون، تعشش ولا تطفش، مالكة لقلب وعقل ووجدان زوجها، طارق الجارم، رجلها الذي ما نطق لسانها بحب سواه.

وحين جلست أمام محدثتها نظرت إليها بعين ونفس واثقة وتساءلت بصوت حمل روحها الجديدة: «خير؟».

ردت روان –والتي كانت تجلس واضعة إحدى ساقيها على الأخرى–على تساؤل محدثتها بوجهٍ حمل كثير من الضيق وصوتٍ

حمل كثير من التعالي: «هو أنتِ عندك مشكلة في السمع ولا إيه هو أنا طول اليوم هفضل أسأل نفس السؤال و أنتِ مش بتفهمي، أنا عاوزة طارق، أتفضلي أدخلي جوه نادي طارق، قولي له روان بره بتسأل عليك».

جيهان: «أولًا و انتِ بتتكلمي مع دكتورة جيهان الجارم صاحبة البيت اللي أنتِ قاعدة فيه تتكلمي بأسلوب أحسن من كده؛ لأن الأدب والتربية اللي اتعلمتهم من زمان يمنعوني إني أرد على وقاحة وقلة أدب حد قاعد في بيتي، ثانيًا أنا مش بجاوب على سؤالك لأن طارق مش موجود، والأدب والتربية برضو اللي اتعلمتهم يلزموني إني ما ينفعش أقول لك ده من على الباب وأسيبك تمشي».

بهتتْ روان أمام صوت جيهان الهادئ ولهجتها المهذبة رغم ما تحمله من حزم، لكنها تجاوزت كل ذلك ولم يعلق بذهنها إلَّا عدم وجود طارق، فبدا القلق جليًا على وجهها، فنهضت من مقعدها لا تدري إلى أين تذهب وسبح فكرها في ألف احتمال واحتمال، وهمت بالانصراف لولا أن استوقفتها جيهان: «أنتِ رايحة فين؟ هو أنا مش جاوبتك على سؤالك، ييجي دوري أنا، أنا أسأل و أنتِ تجاوبي».

ثم نهضت وخطت إلى خارج الغرفة وعادت تمسك جريدة، وضعتها أمام عيني روان وهي تسأل بحدة: «عاوزة أفهم ده معناه إيه؟».

اختلج جفني روان واعترى شفتيها ارتجافة خفيفة لم تخفَ على عيني جيهان الثاقبتين، وظلت تحدق في الخبر أمامها والذي يخص

وفاة أمجد، ثم تساءلت بارتباك: «في إيه الخبر ده؟ أنتِ عاوزة تقولي إيه؟».

ثم تذكرت شيئًا وقالت: «هو أنتِ أصلًا عارفة أنا مين؟».

أجابتها جيهان بحده مماثلة: «طبعًا عارفة، أنتِ الست اللي كانت زميلة جوزي في الكُلية من أكتر من 15 سنة لمَّا كان ماشي بكيفه وعلى مزاجه، و أنا الست اللي لمَّا حب يعيش حياة نضيفة محترمة اتقدم ليا و اتجوزني قدام الناس كلها».

قبضت روان على أصابع يديها لتخفي ارتجافها وجيهان تروي لها أدق تفاصيل ما حدث لها مع طارق، كانت جيهان تتكلم بعصبية متزايدة وتحرك يديها في انفعال، وكلما ذكرت روان بحديثها كانت تشير إليها بسبابتها كأنها توجه لها الاتهام.

أحست روان أنها تتضاءل في مقعدها وهي التي كانت تسخر منذ قليل من قصر قامة محدثتها، شعرت بأنها تجلس أمام عملاق يتضخم باستمرار، وأرادت أن تنهي هذا الموقف الذي فيه، وحاولت أن تتمالك نفسها وتنهض من مقعدها لكن قدماها خذلتاها، كما لم تمهلها جيهان بل وقفت أمامها و انحنت على مقعدها وهي تنظر إلى عينيها بغضبٍ أفقدها كل ما بقيّ من سيطرتها على أعصابها وهي تقول: «دلوقتي السؤال اللي عاوزة أعرف إجابته، مفيش حد كان يعرف إن اللاب توب عند أمجد غير طارق و أنتِ و أنا، يبقى مين الحقير اللي سرب الخبر و اتسبب في قتل الناس الأبرياء دُول؟».

انهارت روان تمامًا وأجهشت في نوبة هستيرية من البكاء وقد اختلطت دموعها بزينة عينيها مخلفة خطيين أسودين انسابا على وجنتيها، و انطلقت كلماتها متهدجة متقطعة تلهث بها وسط الدموع: «أنا السبب، أنا اللي كنت عاوزة أنتقم من طارق لمَّا سابني ورجع ليكي، وقف تفكيري عند اللحظة اللي سابني فيها و أنا بين إيديه وفي حضنه وجري زي الطفل التايه لحضن أمه، جري لحضنك أنتِ يا جيهان، أنتِ انتصرتي يا جيهان و أنا اللي انهزمت».

حاولت أن تنهض وهي تعتمد على مسندي المقعد الجانبين لكن انهيارها التام وارتجاف جسدها وتأثير زجاجة الفودكا أجهضوا محاولتها فسقطت على مقعدها في انهيار تام، ولأول مَرة تطل من عيني جيهان نظرة عطف تجاهها.

تركتها للحظات وعادت تحمل بيدها كوب من الماء قدمته إلى روان التي حاولت أن تمسك بالكوب، لكن إرتجافة كفها كادت تسقطه من يدها، فأسرعت جيهان تمسك منها الكوب وقربته من شفتيها، رشفت روان جرعة قليلة من الماء ثم نظرت إلى جيهان و أبعدت شفتيها عن الكوب وهي تجهش بالبكاء من جديد وتقول: «أنتِ بتعملي معايا كده ليه؟! أنتِ المفروض تحطيلي سم بدل المية دي، أنا مش ممكن أسامح نفسي أبدًا على اللي عملته معاكي، طارق فعلًا كان عنده حق، أنتِ إنسانة عظيمة وقلبك كبير».

ابتسمت جيهان وهي تحضها على إكمال كوب الماء، فلما انتهت روان من شُربها وهدأت نفسها قليلًا جلست جيهان أمامها تقول بهدوء: «الموضوع أبسط من إني أعاديكي أو أشيل في قلبي كره ليكي،

لأن اللي بيني وبين طارق كتير، أكتر مما تتخيلي، سنين وعِشرة وبيت وأولاد ومو اقف حزن وفرح، وقبل كل ده حُب نضيف طاهر، إتبنى على الأصول والعُرف، وكبر قدام عيون الناس ومباركتهم، حُب أبيض نقي بلون فستان الفرح».

وصمتت في نشوة وهي تتذكر يوم فرحها واستغرقت في أفكارها للحظات ثم تذكرت محدثتها فعادت من أحلامها وقالت وقد شابت شفتيها ابتسامة باهتة: «تيجي بقى حضرتك من كتاب التاريخ اللي كنتي فيه وتفكري إنه ممكن تمسحي كل ده، إنسي».

ثم تابعت في جدية: «بصي يا روان، حاولي تخلي زيارتك دي لها فايدة، فكري معايا ممكن يكون طارق راح فين؟».

بدت الحيرة على وجه روان وجيهان تتابع مفكرة بعمق: «أكيد طارق شاف خبر موت أمجد في الجرايد، أكيد كان حاسس بالذنب إنه ليه يد في موت صاحبه وأسرته، الإحساس ده ممكن يخلي طارق مش قادر يشوف قدامه ويرمي نفسه في التهلكة».

ثم التفت إلى روان تسألها: «أنتِ النهارده كنتي فين بعد الضُهر؟».

روان: «كنت في المجموعة».

جيهان: «طيب حسيتي بأي قلق أو سمعتي عن خناقة حصلت في المجموعة و أنتِ هناك؟».

روان وهي تحاول التذكر: «لا مفيش حاجة حصلت من اللي أنتِ.»

ثم وهي تتذكر شيئًا: «ثواني ثواني، أخر النهار و أنا داخلة لمراد السكرتارية قالت ليا إنه خرج من دقايق ولمَّا سألتهم راح فين قالوا إنهم ما يعرفوش لكنه كان مستعجل وعصبي وشكل الموضوع كبير».

جيهان وهي تفكر: «أغلب الظن كده مراد هو اللي يعرف إجابة سؤالنا».

روان: «يبقى لازم نتصرف ونعمل أي حاجة قبل الكلب ده ما يئذيه».

جيهان: «أنا مش عارفة حد هنا ممكن يعمل حاجة، لكن بكرة الصبح بإذن الله يكون وصل اللي يقدر يعمل».

نظرت لها روان بتساؤلٍ فأجابتها جيهان بغموض: «كله في وقته، أنتِ دلوقتي ترجعي لمكانك وتبقي طبيعية جدًا عشان مفيش حد يشك فيكي وياخد حذره».

روان وهي تنهض من مكانها: «طيب وطارق نسيبه كده؟».

جيهان بثقة: «طارق ما يتخاف عليه، طارق راجل».

***

–21–

لعن الله المسافات
التي تفرق بين القلوب المتحابة
وجزى الله الحنين!
–محمد المنسي قنديل–

استعاد طارق وعيه دفعةً واحدة، اقتحمت أنفه رائحة عطن شديد، ففتح عينه بصعوبة وهو يشعر بألم في ساعديه من القيد الذي يكبلهما إلى الجدار الذي خلفه، أخذ يتطلع إلى المكان من حوله بحذر، كان في حجرة متوسطة الحجم تم طلاؤها بلون أصفر كئيب زادته الإضاءة الضعيفة قتامة، في حين كُسيت أرضيتها ببلاط أسمنتي رخيص كُسر سطحه بنقرات متعددة في مواضع مختلفة، وبدا من تناثر بعض المخلفات بالحجرة أنها مخصصة لتجميع المهملات.

– أخيرًا فوقت يا عم بروسلي.

انتزع الهتاف طارق من تأملاته، كيف لم ينتبه الآن إلى وجود شخص معه في نفس الحجرة، التزم الصمت وهو يتأمل الشاب الذي يحدثه، كان مقيدًا هو الأخر في الجدار المقابل له، لحظات من الصمت تأمل فيها طارق محدثه الذي تكلم قائلًا: «أنتَ حكايتك إيه يا عم أنتَ؟ هو الخبطة أثرت على نطقك ولَّا إيه؟».

تساءل طارق بحذر: «أنتَ مين؟».

خالد بعصبية: «يخرب بيت أم أنتَ مين اللي كل شوية واحد يسألها ليا من ساعة ما وصلت هنا، لازم الإحراج يعني، يا سيدي أنا جوز الست اللي أخوها حبسنا هنا حبسة الكلاب دي، أنتَ بقى تبقى مين؟».

أجابه طارق باقتضاب: «طارق».

خالد: «منور يا عم طارق، قولي بقى إيه اللي رماك على العالَم الرمم دي؟».

طارق: «قدر الله ما له من مرد».

همَّ خالد بأن يُعقب على كلامه لكن أخرسه صوت صرير الباب يُفتح، دخل مجموعة حراس شاهرين السلاح بأيديهم، وقفوا يتفقدون المكان ثم تبعهم مراد، سحب لنفسه مقعدًا وجلس في مقابل طارق وخالد وهو يتأملهما بنظرات مُلئت بالتشفي والشماتة ثم قال: «ما كنتش أفتكر أبدًا إن لسه في حد بالغباء ده، حاولت كتير أتغافل عن وقوفكم في طريقي، ودي مش طبيعتي على فكرة، أكتر من فرصة قدمتها لكم لكنكم كنتوا بالغباء إنكم ما تشوفوهاش ولا تستغلوها».

ثم التفت إلى خالد وقال: «أنتَ يا خالد أنا جيت لحد بيتك وقدمت لك عرض ماكنش المفروض إنك ترفضه، فرصة بيحلم بربعها آلاف زيك، إنك تكون كلب وفي من كلاب مراد الغامري، قلت أكبرك وأمسكك شغلنا هنا في مصر، تعيش عيشة ما يخطرش في

خيالك إنك تعيشها، لكن نقول إيه، ما هو العيب مش عليك، العيب على اللي شجعتك ووسخت دمنا بنسب زي ده، على العموم كله هيتصلح ويرجع لأصله لكن مش وقته الكلام ده».

والتفت إلى طارق وقال: «أما أنتَ يا بتاع الضرائب أنا مش قادر أفهم موقفك الصراحة، طيب ده السياسة ولحست دماغه، أما أنتَ مصمم ليه تقف قدامي، وعلى الرغم من موقفك أنتَ كمان خدت فرصتك، اكتفيت بنقلك من شغلك وقولت يمكن تراجع نفسك تقوم تسرقني أنا».

طارق بغلظة: «أنا ما سرقتش منك حاجة».

مراد ببرود: «ما أنا عارف إن مش أنتَ اللي سرقت بإيدك، لكنك فرحت بالجهاز، وغباءك وصلك إنك ممكن تستغل شوية معلومات تافهين ضدي، مشكلتكم إنكم مش عارفين بتتعاملوا مع مين، هتعمل إيه بالمعلومات دي يا بتاع الضرائب، هتروح بيها لفين بعيد عن إيدي».

صاح طارق بغضب: «قتلت أمجد وعياله ليه يا مراد؟».

مراد بصوت مليء بالمقت والغل: «اللي حصل لأمجد كان درس لكل اللي يفكر إنه ممكن يلعب بالنار ويقف في طريقي، وقتها لازم يعرف إن النار دي هتحرقه هو وكل اللي قريبين منه».

انتابت طارق حالة من الغضب كاسحة حاول معها أن ينهض من مكانه وينتزع قيوده لكنه لم يستطعْ، فنظر له مراد بشماتة وهو يقول:

«وفر مجهودك ده أنتَ لسه مطول عندنا هنا، يمكن الحسنة في كل اللي حصل منك النهاردة إنك وفرت علينا المشوار، كان الرجالة نويين يقوموا بزيارة ليك الليلة، كمل بقى شطارة ووفر على نفسك وعليهم التعب والهدلة وقول أنتَ مخبي اللاب توب فين؟».

نظر له طارق بغل وقال: «أنتَ عاوز تعرف اللاب توب فين؟».

ثم أشار له طارق أن يقترب منه، وما أن دنا قليلًا حتى اندفع طارق بكل قوته برأسه ليصدم رأس مراد و أنفه فتراجع للخلف وكاد أن يسقط وهو يصرخ من المفاجئة والألم و أنفه النازف، وشعر أنَّ الدنيا تدور من حوله، و انقض الحراس يريدون الفتك بطارق المكبل في قيده، لكن مراد أشار إليهم بيده فألزمهم مو اقعهم من جديد.

تحامل على نفسه ونهض وهو يشير إلى أحد الحراس فأسرع يناوله منديل ورقي مسح به الدماء المنسابة من أنفه، ثم نظر إلى طارق بعينين يطل منهما القسوة والغضب وأشار له بسبابته قائلًا: «أنتَ اللي اخترت الطريقة اللي نفسك تتعامل بيها، وصدقني أنا سعيد باختيارك ده، وحابب أعرف رأيك بعد ساعة واحدة مش أكتر»... و اندفع يغادر الحجرة حانقًا.

***

–22–

ما أفظع الخداع،
إنه أنكر من القتل!
–نجيب محفوظ–

طرقتان خافتتان ارتفع على إثرهما صوت شاهيناز المرحِب، دخل مراد وقد امتلأ وجهه بابتسامة سعيدة وهو يسأل أخته إن كان ينقصها أو الصغيرة فرح شيء، فأسرعت شاهيناز تحذره وهي تشير بسبابتها إلى فمها حتى لا يوقظ صوته ابنتها الصغيرة الغافية بسريرها الذي أسرع مراد باستقدامه من أشهر و أفخم المحلات، فور علمه بمجيئها للإقامة معه في القصر.

نظر مراد مبتسمًا بسعادة إلى شاهيناز وهو يخبرها بصوتٍ خافض عن مدى السعادة التي يشعر بها من وجودها هي و ابنتها معه بالقصر، و اقترب من رأس أخته يريد أن يطبع قُبلة على جبينها، لكنها استوقفته وهي تشير بقلق إلى الضمادة الرفيعة على أنفه وتسأله: «إيه ده يا مراد؟».

ارتبك مراد للحظات وهو يتحسس الضمادة بأنامله ويخبرها أن ضغط دمه ارتفع فتساقطت بضع قطرات من الدماء من أنفه فربطها حتى تتجلط، نظرت له شاهيناز بقلق ونصحته بأن يسرع بعرض نفسه على الطبيب، فأشار إليها بيده بعدم اكتراث وأمسك بيديها وهو يدعوها للعشاء معه.

ذكَّرها بالأيام الحلوة التي كانت تجتمع فيها شمل أسرتهم الصغيرة على مائدة واحدة، تنهدت شاهينازوهي تسحب يدها من يده وتذهب إلى ركن الغرفة حيث ألقت بجسدها على الفوتيه الذي يحتل المكان وقالت: «فاكرة يا حبيبي، المشكلة إني فاكرة، كل ما أفتكر ذكرى حلوة يقوم عقلي يفكرني بذكرى تانية حزينة تضيع جمال الذكرى الحلوة، عشان كده أنا بحاول أنسى مش أفتكر».

تقدم مراد منها وربت على وجنتيها وهو يقول: «أنا عارف أنتِ عانيتي قد إيه و اتحملتي ألم فوق احتمال البشر، صدقيني يا شاهي أنا لو أقدر إني أغير الماضي كنت عملت كده بدون تردد، ولكن كل اللي أقدر عليه دلوقتي إنى أعوضك عن كل اللي فات، لكن عاوزك أنتِ كمان توعديني».

نظرت له متطلعة فتابع بحرارة: «توعديني إنك تساعديني وتساعدي نفسك إننا ننسى الماضي وكل اللي فيه، إحنا دلوقتي مالناش غير بعض، إحنا العيلة يا شاهي، فاكرة كلام بابا زمان إن العيلة هي كل حاجة وأهم حاجة في الدنيا، العيلة راح منها اتنين واللي فاضل أنا و أنتِ وفرح».

لامست شاهيناز بأنامل يدها ساعدي مراد وتطلعت إليه قائلة: «وخالد يا مراد، أنتَ حاسبه من العيلة ولا هو مش في حسبتك؟».

جلس مراد جوارها ونظر إليها قائلًا: «هو أنا قصرت مع خالد يا شاهي، هو اللي اختار يعتبر نفسه بره العيلة، مسيطرة عليه فكرة إنه لوحده نضيف وكل اللي حواليه أوساخ، مش قادر عقله يستوعب إن

فيه ناس بتتعب وتشتغل وتعمل ثروتها بمجهودها، مش قادر يشوف إن في ناس معاها فلوس بتخدم البلد أكتر منه بكتير، انتي طبعًا عارفة كمية المشاريع الخيرية والخدمية اللي بنقوم بيها مش بس هنا في مصر لا في كل بلد لينا فيها استثمار، المشكلة مش فيا يا شاهي المشكلة عند خالد».

أشاحت شاهيناز بيدها وهي تقول ببعض السخرية: «الكلام ده كنت ممكن أصدقه زمان، يا مراد أنا اتغيرت، نزلت الشارع وشوفت الناس الغلابة اللي بجد، واسمحلي أقول لك إن كل كلامك مش صحيح، شوية المشروعات الخيرية اللى بتتكلم عنها معمولة بس عشان تحسن شكل المجموعة قدام الناس، تقدر تقول ليا الأسمنت اللي اتصدر لإسرائيل معناه إيه؟ تقدر تقول ليا كل مشاريع ((dirty worker اللى بتخصوا بيها مصر ودول العالَم التالت اللي حوالينا معناها إيه؟ تحب أكمل ولا كفاية كده».

رسم مراد ابتسامة بريئة على شفتيه وهو يقول بنفس الهدوء: «يا حبيبتي لو أنتِ فعلًا اتغيرتي هتشوفي الدنيا اللي حوالينا ماشية ازاي، أنتِ عارفة لو المصريين قاطعوا كل اللي حاربوهم زمان، كانوا مش هيلاقوا حد يتعاملوا معاه في الدنيا كلها، البلد دي عدى عليها كتير، والتجارة مش كده يا حبيبتي».

ثم تابع وهو ينهض من على مقعده: «أما بالنسبة لموضوع (Dirty Worker) أنتِ مش عارفة كمية الترحيب من الحكومات على المشاريع اللي من النوع ده، كمان إحنا بندفع كتير عشان المشاريع دي تستمر».

كانت تريد أن ترد على كلامه وتثبت له زيف مبرراته ومعتقداته و أفكاره لكنه لم يمنحها فرصة وتابع حديثه وهو يتحرك إلى باب الغرفة: «وبقولك إيه يا شاهي، الكلام ده مش هيخلص في قعدة، بس لازم نكمله مع بعض عشان أنتِ هتبقي شريكة أساسية، دلوقتي اتحركي بقى لأني هموت من الجوع، كمان في واحدة عاوزك تتعرفي عليها».

ظهر على وجهها الفضول والسؤال فقال وهو يطلق ضحكة ساخرة: «متقلقيش دى المُزة مرات الباشا أبوكي».

وعندما وصل إلى باب الغرفة التفت إليها كأنما قد تذكر شيئًا: «وبقولك إيه صحيح ابقي حضري أوراقك كلها عشان بكرة في عندنا اجتماع مع المجموعة القانونية عشان يخلصوا إجراءات تقسيم الميراث».

ثم أكمل طريقه إلى خارج الغرفة وأغلق الباب خلفه.

***

ساد الصمت الكئيب داخل الغرفة التي يقبع بها طارق وخالد، صمت لا يتخلله إلَّا أنفاس طارق المتلاحقة ولهاثه المستمر، بينما خالد يتطلع إليه في حزن عميق، وشعور بالعجز والقهر يعتريه أمام كل ما حدث لرفيق محبسه طارق الذي كان معلقًا من معصميه في كلابشة حديدية بارزة من سقف الغرفة، في حين ظلَّ جسده يتأرجح دون إرادة منه.

كان وجهه قد جُرح في أكثر من موضع، وأحيط بعينه ورم دامي، بينما قطرات من الدماء تتساقط من أنفه النازف، أما قميصه فقد مُزق في أكثر من موضع وبدا جليًا ورائها آثار دامية لجروح وتمزقات غائرة على الجلد.

وفي محاولة من خالد لتبديد الصمت المخيم عليهما قال بصوت حاول أن يكسبه بعض المرح لكنه خرج على الرغم منه مبحوح جاف: «عجبتني يا معلم، فضلت ثابت ومتماسك ومريحتش ولاد الكلب دُول على الرغم من كل اللي عملوه معاك».

لم يرد عليه طارق وظلَّ ملازمًا الصمت، تطلع إليه خالد للحظات ثم قال: «الحبسة اللي احنا فيها دي صعبة والتعذيب اللي جرى معاك أصعب أنا عارف الكلام ده كويس، ولكن خدها مني يا صاحبي مفيش أي حاجة ممكن تخفف عنا اللي إحنا فيه غير الكلام، صدقني السكوت عمره ما هيكون حل، بالعكس ده بيزود على الألم البدني ألم نفسي كمان، اسمع مني أنا طول عمري غرقان في الجو ده».

تطلع له طارق ولكنه ظلَّ على صمته، فقال خالد: «طيب بلاش تتكلم أنتَ، أنا اللي هتكلم وأحكي ليك حكايتي مع العيلة دي، يمكن لمَّا تسمع مني تصدق إننا فعلًا في مركب واحدة وتطمن ليا عشان يمكن نقدر نخلص من اللي احنا فيه ده».

ثم أخذ نفسًا عميقًا وبدأ يروي له كل شيء.

***

التف الثلاثة على مائدة بالغة الطول متخمة بألوان شتى من أصناف متنوعة من الطعام، جلس مراد على رأس المائدة وعلى يمينه شاهيناز وعلى يساره روان، وفي ظل برود وصمت إلَّا من طرقات أدوات المائدة جرى تناول طعام العَشاء.

كان كل منهم يحمل مشاعر متباينة تجاه الجالسين معه خاصة شاهيناز وروان، فالأُولى ترى أن الثانية دخيل على أسرتهم وقد دنست بوجودها مكانة أمها المتوفاة واستحلّت منزلتها، والثانية ترى أنها ضحية لأطماع اثنان من العجائز، فقدت بسببهم أبهى أيام عمرها، ولو أنَّ الأمر كان بيدها لما قبلت يومًا أن تنتمي لتلك الأسرة البغيضة إلى قلبها.

وتأملت شاهيناز المقعد الشاغر، وهو الذي كانت والدتها تجلس عليه فعاودتها ذكريات الماضي، وهي تتذكر أُمها التي كانت أقرب فرد لها داخل أسرتها بل وفي الوجود، أمها التي تحملت في سبيل تشجيعها ومو اقفها المؤيدة لها الكثير والكثير من الإهانات والألم والأوقات العصيبة، وتنهدت من أعماقها وهي تتمتم بخفوت بالرحمة على والدتها وتتأمل بكثير من الاحتقار روان، والتي قطعت الصمت المخيم على المائدة منذ بداية العَشاء وهي تسأل مراد: «مراد هو إيه اللي ف وشك ده؟».

أجابها مراد بزفرة عالية من فمه دلَّت على غيظ مكتوم ولاذ بالصمت وهو يرشف من كأس النبيذ الأحمر الموضوع أمامه ويلعق بلسانه شفته السفلى متلذذًا، ثم التفت إليها يخبرها بلهجة حاسمة بأهمية الحضور في موعد اجتماع الغد مع الإدارة القانونية لتقسيم

التركة حتى يعلم كل وريث حقه ويتفرغوا بعد ذلك لما أمامهم من أعمال، فهناك موضوعات كثيرة خارج مصر تحتاج إلى سفره لمتابعتها».

هزت روان رأسها متفهمة في حين فاجأته شاهيناز: «المهم بس إن الاجتماع يخلص بسرعة، عاوزة أروح شقتي في حاجات ضروري إني أجيبها من هناك».

بدا بعض الاضطراب على وجه مراد لثوانٍ ولكنه تحكم في انفعالاته بشكل بارع، وأسرع يمازحها قائلًا وهو يبتسم: «حاجات مهمة ولا عاوزة تطمئني على الباشمهندس بتاعك».

شاهيناز وهي تنظر له مبتسمة: «الاتنين، أنا وخالد كل اللي بينا اختلاف في وجهات النظر لكن يبقى دائمًا الحاجات الحلوة اللي عيشناها وأهم حاجة فرح».

مراد: «لازم تفهميه إنه مهما حصل هيفضل واحد من عيلتنا، يكفي إنه قدريكسب قلب أعز إنسانة ليا في الوجود».

قال ذلك وأمسك بيدها اليسرى ثم ربت عليها بحنان وهو يتابع: «لكن أعتقد صعب إنك تمشي بدري بكرة خلي مشوارك بعد الاجتماع؛ لأن في تفاصيل كتير محتاجك فيها، ونشوف أنتِ ممكن تقدري تفيدينا في أي نشاط من أنشطة مجموعتنا، أنتِ عارفة القاعدة الذهبية اللي حطها الباشا، مفيش فلوس من غير شغل».

أجابته شاهيناز بابتسامة مشرقة: «اللي تشوفه يا حبيبي».

نهضت روان وهي تنظر لهما بسخرية من وصلة الحُب بين الشقيقين، وحيتهما بابتسامة سمجة، ونظرة باردة من عينها، وتركتهما وصعدت إلى حجرتها، وأغلقت الباب خلفها، و اتجهت إلى النافذة، وهي تطالع الحديقة الممتدة أمامها، والغافية وسط الإضاءات الخافتة الموزعة في أرجاءها بشكل جمالي محسوب بدقة.

كان عقل روان يعمل سريعًا، وقد جزمت بأن مراد يُخفي عليها أمرًا، فقد كان يتهرب من إجابتها كما أنه لم يخفَ عن عينيها المتربصتين الإجراءات الأمنية المكثفة والتي تفوق المعتاد ثلاث مرات على الأقل، كذلك البو ابة الرئيسية والتي فوجئت عند عودتها كأنما قد انتزعت من مكانها، وأن أعمال الترميم والإصلاح تُجرى بها على قدمٍ وساق، وعند سؤالها لأفراد الأمن عن ما جرى أجابوها باقتضاب، أن ما يقوموا به هو تنفيذ أوامر مراد باشا بتجديد بو ابه القصر وصيانتها.

وبالطبع لم ينطلِ هذا الكلام على عقلها، هي تعلم جيدًا بأن الحقيقة كلها تكمن خلف مراد، فيجب عليها أن تر اقب كل خطو اته مر اقبة لصيقة، ولذا فقد عزمت أن توهمه بأنها قد خلدت إلى النوم في غرفتها، في حين أنها تنوي خلاف ذلك... وعندما لمحته من شرفة حجرتها يخرج من القصر وبصحبته حارسيه إلى الحديقة هرعت في إثره، فوجئت به يتجه إلى الجهة الجنوبية من الحديقة، حتى وصل إلى مشارف حدودها الأخيرة، و اتجه إلى غرفة تعلم جيدًا أنها كانت مخصصة للبستاني يضع فيها مستلزماته وعدته، فوجدتها محاطة

بالعديد من الحراس المسلحين بتسليح لم تعتد على مشاهدته من قبل.

ثم رأت مراد يتحرك إلى بابها فيسرع الحراس بفتح الباب له، حاولت أن تتبين من مكانها على كنه الشيء المحاط بكل تلك السرية والحراسة المشددة لكن الظلام وبُعد المسافة حال دون ذلك، فجلست متوارية في مكمنها تتابع ما يَجِد أمامها في فضول كبير.

***

–23–

الجحيم هو الحقيقة
التي نُدركها بعد فوات الأوان!
–توماس هوبز–

مضت ساعة كاملة حكا فيها خالد تفاصيل مأساته وكل ما حدث له مع عائلة زوجته، شعر طارق بصدق كلامه و انشرح له صدره فروى له هو الأخر ما مَر به وحدث مع صديقه أمجد، أخبره عن اللاب توب وبالمعلومات التي وجدها عليه والتي كان خالد يعرف كلامًا يتداول عن بعضها، لكن طارق أضاف لها عدة مسائل أخرى.

وعندما ذكر له تجارب الشركات الدو ائية للمجموعة و آثارها والتي كان أبوه أحد ضحاياها صاح خالد بغضبٍ جم: «يا ولاد الكلب، فعلًا نسبة المرض ده ارتفعت جدًا في الفترة الأخيرة وكان الناس كلها بتسأل عن السبب، الكلاب دي لازم تتفضح قدام الدنيا كلها وتتكشف المعلومات دي للرأي العام».

طارق: «رأي عام إيه بس، الناس دي عندها آلة إعلامية تقدر تغير بيها فكر الرأي العام كله وتتحكم فيه زي ما هي عاوزة».

هز خالد رأسه وصاح: «لا ده كان زمان، في ألف وسيلة ووسيلة نقدر نوصل بيها صوتنا للعالَم كله»... ثم خفض صوته وهو يقول لطارق: «المهم في اللحظة دي إنك تستمر على ثباتك ومفيش

حد يعرف أي معلومة منك، حقك وحق أبوك وصاحبك مرهون بصمودك يا طارق».

كانا يتحدثان باندماج كبير وقد نسوا أو تناسوا ما هم فيه، وكان ذلك هو هدف خالد الأول أن يهون على زميله ما لاقاه في محبسهما، وقد نجح في ذلك إلى حدٍ كبير، لكن أعادهم إلى ما هم فيه وقع خطوات ثقيلة ومتسرعة، فُتح على إثرها باب الغرفة ودخل مراد وخلفه رجاله مدججين بالسلاح، وقف يتطلع إلى طارق بتشفٍ وتعالٍ واضح ثم قال: «الرجالة قالت لي إنك مش عاوز تتكلم وتقول على مكان الجهاز».

والتفت إلى خالد وهو يقول: «و أنتَ يا عم المُقنِع، ليه مش قادر تنصحه إن مفيش فايدة من سكوته ده، وإن كل اللي بيعمله ده مش هينفعه، ده أنتَ حتى فاهم ومجرب الكلام ده قبل كده».

خالد مازحًا: «ما هو أنا عشان مجرب زي ما انت بتقول فأنا سعيد جدًا باللي عامله فيكم الجدع ده».

مراد: «ليه كده بس يا باشمهندس، و أنا اللي كنت لسه بافكر إني أديك فرصة تانية عشان البنوتة الجميلة اللي فوق دي ما تتحرمش من أبوها وهي لسه صغيرة كده».

أطل غضب جم من عيني خالد حين ذكَّره بابنته فصاح منفعلًا: «أنا بحذرك يا مراد إنك تقرب من مراتي أو بنتي».

مراد بهدوء مستفز: «مراتك دي أختي و أنتَ ملكش عندنا بنات».

ثم أطلق مراد ضحكة عالية وهو يقول: «عندنا العيال بيتنسبوا لأمهم».

صرخ خالد وهو يجذب يديه من قيدها دون جدوى وقد بلغ به الغضب مبلغه: «تبقى واهم لو كنت فاكر إن شاهيناز ممكن تشاركك على الوساخة والفساد اللي أنتَ عامله في البلد، أنتَ مجرد مجرم زيك زي أي كلب البلد دي دفنته تحت ترابها و اتمحى ذكره من الوجود، وفضلت هي من بعده صالبة عودها وو اقفة قدام الكل».

صرخ مراد بغضب مماثل: «البلد دي ولا حاجة من غيرنا، البلد دي و اقفة بس لأننا سيبينها و اقفة، مصلحيتنا إنها تفضل على حالها كده، بس أنتوا اللي أغبياء مش قادرين تفهموا ده، مش ممكن تخرجوا أبدًا عن الحدود اللي رسمينها لكم، لا تتقدموا خطوة ولا تتأخروا خطوة».

صاح خالد متسائلًا في ترقبٍ وبصوت حمل كل انفعاله: «أنتوا مين؟».

رفع مراد قدمه مستندًا على مقعد بجواره وظلَّ يفكر للحظات ثم قال: «أنتوا كده كده مش هتخرجوا من هنا».

ثم التفت إلى الحراس المنتشرين حوله وقال مشيرًا لهم بيده إلى خارج الغرفة، بدا التردد على الحراس لكن نظرة حاسمة من عين مراد قضت على ترددهم فغادروا الغرفة، بعدها ساد الصمت حتى نظر مراد إلي خالد قائلًا:

«الكلام اللي هقوله يهمني أنت بالذات تعرفه عشان تفهم في أخر لحظاتك في الدنيا حاجات كتيرة كانت غايبة عنك، يمكن لمَّا تفهمها تلاقي فيها تفسير لكل مشاكل حياتك، وبكده أنا بقدم لك الراحة الأبدية بالمعنى الحرفي للكلمة، هتموت على الأقل و أنتَ عارف، ودي حاجة لازم تشكرني عليها، في ناس كتير بتعيش وتموت من غير ما تعرف ولا تفهم».

ظلَّ خالد صامتًا وهو يتطلع إلى مراد الذي تابع: «لمَّا الرب كتب علينا الشتات من آلاف السنين كان قصده إنه يعذبنا، وكتير فهموا الموضوع بالشكل ده، لكن عظمة شعبنا تجلت في قدرته إنه يخلق من قلب النقمة دي نعمة، اختلطنا بأجناس الأرض، دوبنا بينهم، اتعلمنا ثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

تاريخنا أصبح تاريخ الكرة الأرضية، حتى أشكالنا الخارجية أصبحت خليط من أشكال البشر، قبل حركة الجيش في 52 كان وجودنا هنا أقوى مما يتخيل أي حد، كان اقتصاد البلد كله في إيدنا، وكان نفوذنا واصل لكل مكان حتى في القصر الملكي نفسه.

كان كل قرار بياخده الملك فاروق إحنا اللي بنمليه عليه بعد ما حولناه من شاب بيحاول يكسب ود شعبه وواخد صفهم ضد الاستعمار البريطاني والتدخل في مملكته بلاد النيل وقتها، إلى راجل هلاس مش بيسيب تر ابيزة القمار وبيطارد الر اقصات في كل مكان، وده طبعًا كان عن طريق كام واحد أجنبي زرعناهم حواليه لحد ما أصبحوا أقرب الناس ليه.

كل ده لحد ما حصلت حركة الجيش في 52 وراح الملك وفجأة اتمسكت البلد من مجموعة شباب مفيش حد يعرف عنهم حاجة، و اتلخبطت الصورة أكتر لمَّا قاموا هما كمان على بعض، واستقل عبد الناصر بالسُلطة في مصر.

كان وقتها شاب صغير وعامل زي الدون كيخوتي بالظبط، بيناطح العالَم كله، كان واضح إنه هيقع في يوم من الأيام، لكن اللي كان أوضح إن وجودنا في مصر بقى محل تهديد، وأصبح وجودنا شبه مستحيل خاصةً بعد حرب 56.

كان لازم يكون في خطة بديلة وطويلة الأمد تأمن وجودنا في مصر، وكالعادة كان فكرنا سابق للزمن، الموضوع مش جديد علينا وعملناه ميت مَرة قبل كده على مدار التاريخ كله، كان وقتها لازم يظهر أكتر من شخص مننا طبعًا لأننا مش بنثق في حد غيرنا، وطبعًا لازم يظهروا بأسماء جديدة وديانات جديدة وشخصيات لها تاريخ عائلي كامل ومتأمن على أعلى مستوى.

الموضوع ده أخذ حوالي سنة لدراسته والإعداد لتنفيذه، ومع الأيام بدأت الناس دي تحرك الأمور في مصلحتنا قبل ما تخرج من إيدينا، واحد من الناس دي كان جاكوب ذكى ميخا أو اللي انتوا عرفتوه بعد كده باسم جودت الغامري».

***

– خلاص يا حبيبي إنسى كل اللي فات، الجماعة كلهم موجدين وفي انتظارك.

وسحب الشاب من ساعده وحرك لوحة زيتية معلقة على الجدار إلى اليمين ولسنتيمترات محسوبة بدقة، فتحرك الجدار قليلًا وبرز من خلفه باب صغير يكفي لدخول شخص واحد وهو منحني القامة.

***

– انت عارف إن كل إصرارك الفترة اللي فاتت وعنادك أوحت لقيادتنا في الوطن بفكرة عبقرية هتغير كل خطتنا اللي كنا شغالين عليها طول المدة اللي فاتت، وعلى رأي الناس حبايبك هنا كل تأخيره وفيها خيرة».

– جاكوب ذكي ميخا كل اللي انت عاوزه هيتعمل.

***

ساد الصمت لدقائق حتى صاح طارق قائلًا: «أنت بتقول إيه يا عم أنتَ؟ أنتَ مجنون ولَّا إيه حكايتك؟».

ونظر إلى خالد لعلَّه يجد لديه إجابة، لكن نظرة عينيه المحتقنة الجاحظة وجهته التي برزت منها بعض العروق النافرة جعلته يدرك بأنه ليس في حال أفضل منه.

كان عقل خالد يعمل بأقصى طاقته ليستوعب كل ما قيل أمامه، وبعد برهة من الصمت وبصوتٍ جاف خرج منه سؤال واحد: «شاهيناز كانت عارفة الكلام ده؟».

تحرك مراد خطوات ليجلس على المقعد وسرح بفكره لدقائق وهو يجيبه كأنما يسترجع ذكريات محببة: «لأ طبعًا، أنا نفسي ما كنتش أعرف حاجة عن الموضوع ده لحد كام سنة فاتوا، وعشان كده الباشا كان رافض جوازك من شاهيناز، مش عشان أنتَ فقير ومستقبلك مش مضمون، كان الأهم إنك ما تلوثش نقاء نسبنا بدخولك فيه، ولأن الموضوع ده كان كبير جدًا بالنسبة له كان غضبه كبير، وأخد القرار بطرد بنته الوحيدة من حياته.

نرجع لموضوعنا...

في الأيام الأخيرة من عمر جودت باشا كنت بره مصر وفوجئت بزيارته ليا، قال لي على كل حقيقتنا وتاريخنا، وقدم ليا مستندات وأوراق تؤكد كلامه، بعد كده خدني وسافرنا في رحلة للوطن، إسرائيل أرض الميعاد، رحلة عمري ما أقدر أنساها.

قدمني فيها لناس كتير قال لي إنهم قرايبنا، عمات وأعمام، منهم ناس عاديين، ومنهم موظفين بأماكن في غاية الأهمية، زرت الكنيست والموساد، كان ترحيبهم بيا واهتمامهم كبير، وقتها عرفت حقايق كتير كانت غايبة عني، وتصرفات كتير ما كنتش قادر أفسرها، زي استهانة أبويا بعيشة المصريين وسخريته منهم ومن العرب كلهم.

عرفت سر الفلوس اللي ما ليها أول من أخر واللي كانت بتتضَخ في شرايين مجموعتنا فتسهل علينا دخول أي صفقات مهما كانت قيمتها أو المتنافسين فيها.

العلاقات القوية اللي على أعلى المستويات اللي كانت عند الباشا في العالَم كله واللي كانت بتسهل لنا كتير من شغلنا، عرفت السر من العقود اللي كانت مجموعتنا بتعملها في مجالات كتيرة واللي كانت كلها بتصب في مصلحة جهة واحدة، إسرائيل.

الوطن الذي لا يترك أبنائه بمفردهم، وشعب الرب الذي اختاره عن العالمين لأنهم الأحب إليه والأعرق والأقدم والأذكى والأكثر دهاء من كل الأميين (عم قادوش الرب الذي اختارنا) لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب التي على وجه الأرض.

الرب الذي منحنا وعده «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

نطق كلماته الأخيرة بخشوع العابد المتبتل ثم تابع: «الباشا حكالي على اللاب توب وإن عليه كل تفاصيل العقود السرية اللي قمنا وهنقوم بيها، وأرقام الحسابات السرية اللي بنمول بيها معظم صفقاتنا».

ثم اعتدل وهو يواجه طارق قائلًا: «طبعًا أنتَ أكيد دلوقتي فهمت أهمية اللاب توب، وفهمت إن الموضوع مش موضوع أسرار

تجارة وفلوس وشوية عقود لأ طبعًا الموضوع موضوع وجود.

وجودنا دلوقتي متهدد بوجود الجهاز ده تحت إيدك، طبعًا الموضوع مش محتاج تفكير كتير، حياتنا قدام حياتك».

تساءل خالد بهدوء: «أنتَ عاوز تفهمني إن طول السنين دي كلها مفيش أي حد أو جهة أمنية قدرت تكشفكم، أنتَ مش شايف إن الكلام ده وسع منك حبتين؟».

ضحك مراد من جديد وهو يقول: «طبعًا الكلام ده أكيد يكون واسع لمَّا ناس زيكم هما اللي يخططوا له، لكن عقول بذكاء عقولنا بتخطط مستقبلها لأكثر من 100 سنة قدام أعتقد إنه الموضوع بالنسبة لينا عادي وبسيط».

ثم وضع ساق على أخرى وهو يتابع: «إحنا عايشين على إننا مصريين حاول إنك تصرخ وتقول غير كده وشوف مين هيصدقك، حاول تشكك إن اللي بينفق على الأعمال الخيرية واللي بيعمل أكبر موائد أكل في رمضان واللي بيمتلك أشهر قنوات الإعلام ومنهم قنوات دينية على فكرة، ده غير الجرايد اليومية ومنهم جرايد معارضة بيشتموا فينا طول الوقت، حاول تقول إن اللي بيمول معظم مشروعات الحكومة وإن أكتر أشخاص تتصف بالوطنية، رجال قانون أطباء ومشاهير، حاول تقول إن الناس دي عملاء ومش مصريين وشوف إيه اللي ممكن يحصل لك».

خالد بحدة: «على فكرة أنتَ واهم أو في الأغلب مجنون، أنتوا لو زي ما بتقول كده ما كنتوش أخدتم على قفاكم في 73 وخرجتم من سيناء و أنتوا بتجروا مرعوبين باللبسة».

بدا الضيق على وجه مراد لكنه تمالك نفسه وعاد لبروده وهو يقول: «شرحوا ليا الموضوع ده في الوطن، الفترة دي كان الوطن تحت إدارة مجموعة شايفة إن استخدام القوة العسكرية المباشرة هي الحل في مواجهة العرب، وفعلًا نجحوا إلى حد كبير في تحقيق أهدافهم، أنتَ عارف يعني إيه شعب لا يتعدى عدد سكانه تلاتة مليون يحارب على تلت جبهات مختلفة مصر سوريا والأردن ويحقق انتصار عظيم، لكن المشكلة كانت هنا في مصر، هي الوحيدة اللي قدرت تقف قدامنا وتعاند.

لما مات عبد الناصر قالوا في الوطن إن ده نصر أكبر من اللي اتحقق في حزيران 67، لكن ظهر بعده شخص أخطر منه، ولأول مَرة الجماعة في الوطن يتعاملوا مع عربي وهمَ مش قادرين يعرفوا خطوته الجاية، لحد ما فوجئ الجميع بحرب يوم الغفران، يومها هو الوحيد اللي حقق هدفه، والوحيد اللي قدر ياخد مننا أرضنا، ووضحت قدامنا خطورة السادات كعربي قدر يخدعنا وكان لازم نتحرك قريب منه.

وبالفعل قدرنا بمساعدة أصدقائنا في الولايات المتحدة بتطويقه وإيهامه بأن أمريكا هي الحل وأن كل أوراق اللعبة السياسية في أيديها، نجحنا في تمرير أكتر من قرار داخلي حتى بلغت الأمور حد الثورة والبلد كانت هتفلت من إيده في سنة 78، لكنه في شجاعة

غريبة تراجع عن كل القرارات اللي دبرناها له.

كان كل ما يحسوا إنهم ملكوه وبقى تحت طوعهم يقوم عامل حركة من حركاته يلخبط بيها الصورة من جديد، كان مراوغ زي التعلب، وكان لازم نخلص منه، وتم اغتياله، وجه بعده جنرال تاني حاول في الأول يلاعبنا ويراوغنا وكان رجال السادات لسه في الحكم بيمدوه بالملفات ويناقشوه في القرارات، واستمر الحال حوالي عشر سنين؛ مارسنا فيها كتير من الترغيب والترهيب لحد ما قدرنا نعمل من وظيفة رئيس الدولة وظيفة روتينة؛ زيها زي أي وظيفة حكومية تانية.

رجالتنا اتحركوا على كل المستويات، غرَّقنا البلد في مشاريع وهمية وفاشلة استنزفت مواردها المهدورة أساسًا، قتلنا الشعب من غير سلاح بنشر الأوبئة والأمراض والمبيدات المسرطنة، حركنا عملائنا من الكُتاب والمفكرين قتلوا في النفوس أي إحساس بالعزة أو الفخر، أي لمحة من التاريخ ممكن تحيي عند الناس الأمل كانوا بيلوثوها ويطمسوا معالمها، حتى الحقايق الواضحة وضوح الشمس قمنا بالتشكيك فيها، حتى الهرم قولنا إننا اللي بانيناه وأصحابه الشرعين و اتكلم بكده رجالتنا الموحدين بمجد إسر ائيل».

ساد الصمت التام لفترة كبيرة بعد كلام مراد، حتى قطعه خالد متسائلًا: «أنتَ عاوز تقول إن كل الفساد اللي إحنا فيه ده أنتوا سببه؟».

مراد: «إحنا جزء كبير فيه طبعًا، صحيح إحنا مجموعة صغيرة ومفيش حد فينا يعرف التاني، لكن تحت تصرفنا مئات العملا منكم

بيتعاونوا معانا لأقصى مدى وعلى أعلى مستوى، والنتايج هي اللي بتتكلم مش أنا، باختصار كده كل اللي يهدم شعبكم ويضعفكم ويفقركم إحنا وراه، وكل اللي بيصب في مصلحة إسرائيل ويدعم موقفها ويزيد ثرواتها وقوتها فإحنا برضو وراه، إحسبها أنتَ ولو لقيت وقت إشرح لصاحبك».

ثم التفت إلي طارق وقال وهو ينهض: «طبعًا أنا قلت أتكلم معاكم بصراحة، و أكشف قدامكم كل الحقايق عشان تقَدروا الموقف اللي أنتوا فيه، طبعًا أنتوا الاتنين خلاص مفيش حد منكم هيخرج بره المكان ده حي ده أمر واضح، لكن أنت يا طارق تقدر قبل ما تموت تفدي أسرتك من مصير شافته أسرة أمجد صاحبك، فكر وقدامك للفجر، يا تبلغني بمكان اللاب توب يا إما أبعت الرجالة على بيتك، فكر ومنتظر ردك».

قال ذلك و انصرف من أمامهم وغادر الغرفة وظلَّ الاثنان غارقين في بحرٍ من الصمت والذهول.

***

–24–

يا قلب.. لا تفقد الأمل،
فالمعجزات تختبئ فيما لا نراه!
–شمس التبريزي–

ساد الصمت فورخروج مراد، غرق خلاله كل من طارق وخالد في أفكاره، أدرك طارق حجم الخطر الذي يهدد أسرته ويتربص بهم، أدرك أنه لا يملك أدنى مجال للمساومة، أما خالد فقد تلقى ما أخبرهم به مراد باضطراب وتشوش ذهن لم يعتده من قبل، وأصابته حالة من عدم التصديق ورفض لكل ما قيل.

كيف يصدق أنه وهو الذي لم يترك أرضًا أو مناسبة استطاع فيها أن يقف محتجًا على السياسات والمجازر الصهيونية أن يقع في براثن تلك العائلة الصهيونية، وأن تكون أول فلذات كبده وأحب المخلوقات على ظهر البسيطة إلي قلبه ثمرة هذا الزواج.

لا يعلم لماذا حين تذكر ابنته الصغيرة فرح سرح فكره إلى الشهيد محمد الدرة، ذلك الطفل الصغير الذي ظلَّ محتميًا في صدر والده من رصاص جنود الاحتلال، ونظرة عينيه، آه من نظرة عيني الطفل البريئتين حين يطل منهما الرعب والفزع واللهفة في البحث عن الملاذ والأمان، ملاذ واهٍ وأمان زائف.

كشف المشهد الوجه القبيح لكل ألوان الخيانة والعمالة والزيف والمداهنة وكل الكذب والبهتان في دعاوى الأرض مقابل السلام، السلام الذي ظلت كف والد الطفل تلوح به بأصابع ممدودة ومتشنجة والرصاصة الغادرة تمزق صدر صغيره لتفرغ منه الحياة وتغادر الروح البريئة الطاهرة إلى عالَم أنقى وأرحم لم يُلوث بعد.

الوالد يشاهد ابنه ويشعر بجسده الخاوي من الحياة ممدد على قدمين طالما هدهد عليهما، نظرة خواء تعكس العَجز وقلة الحيلة والهوان والضعف والخذلان، لم يحتمل جسد الأب كل هذا العذاب والشقاء فيفقد الوعي أمام كل العالَم وأمام نظرات قميئة و ابتسامة خبيثة ساخرة من الصهيوني الممسك بسلاح الغدر، عند ذلك الحد لم يتمالك خالد نفسه فصرخ بأعلى صوته: «يا ولاد الكاالب».

ظلَّ طارق ينظر إليه صامتًا، فقال خالد بعد دقيقة سيطر فيها على انفعالاته: «وبعدين يا صاحبي، دي قفلت زي الدومنة، هنعمل إيه؟»...

فأجابه طارق على الفور: «مفيش قدامي خيارات، الكلب بيساومني على عيالي، لازم أقول له على مكان الجهاز».

دلَّتْ لهجة طارق بأنه قد حسم أمره جيدًا ولا مجال لإثنائه عن موقفه فساد الصمت بينهما من جديد.

***

–25–

كل قوة ضعيفة
ما لم تكن موحدة!
–لافونتين–

لم تكنْ الساعة قد تجاوزت السادسة صباحًا حين دوت الطَرقات تتوالى قوية وحازمة على باب شقة طارق، واستمرت لخمس دقائق كاملة حتى فُتح الباب وظهرت جيهان على عتبته، ولكنها تنحت جانبًا صارخة حين اندفع ستة رجال مدججين بالسلاح من باب شقتها في غلظة وسرعة، ووضعت يدها على فمها تصرخ بلوعة، حين رأت طارق وهو مكبل اليدين خلف ظهره بينما يبدو على وجهه وقميصه الممزق أثار التعذيب في حين كان يدفعه أحد المقتحمين أمامه.

لم تتمالك جيهان نفسها فاندفعت إلى زوجها تريد احتوائه بين ذراعيها لكن منعها أحد الحراس بيده بغلظة وهو يقول بصوتٍ آمر: «اعقلي كده يا مدام وما تجبريناش على رد فعل كلنا في غنا عنه».

تراجعت جيهان للخلف إثر دفعة الرجل، فصاح طارق وهو يحاول دفع الحارس الذي بجانبه لكن قيده حال دون ذلك: «لو حد فيكم مس شعرة واحدة من أهل بيتي، إنسوا إني أدلكم على حاجة، ده الاتفاق اللي بيني وبين مراد بيه، أنتوا فاهمين ولا لأ».

أجابه الرجل بابتسامة خبيثة وهو يقول: «أنت بس دلنا على مكان اللاب توب وإحنا عارفين التعليمات اللي عندنا».

لاحت نظرة ارتياب في عين طارق، فحاول أن يقوم بمراوغة أخيرة فسأل جيهان عن الأولاد فأخبرته بأنهم بغرفتهم نائمين فأمرها أن توقظهم وتأخذهم من الشقة وتسافر إلى البلد.

صاحت جيهان بلوعة ترفض ترك زوجها، فصرخ بها طارق لتنفذ كلامه فقاطعهم الحارس وهو يقول ببرود: «هو أنتوا بتتكلموا في إيه؟ ولاد إيه وبلد إيه؟ مفيش مخلوق هيسيب الشقة لا للبلد ولا حتى للشارع من أصله».

علا من خلفه صوت لم يحُلْ هرمه دون نبرة سخريته الواضحة وهو يقول: «معاك حق يا ولدي مفيش حد هيروح على البلد، لأن البلد كلها جت لحد عندكم هنا».

وفي لحظة انقلب المكان، و اقتحم بهو الشقة الواسع عشرة رجال معممون يرتدون الجلابيب وساعدهم عنصر المفاجئة في ألَّا يستغرق الأمر أكثر من ثلاث دقائق حتى تخرج الأمور من تحت سيطرة المقتحمين، ثم ثلاث دقائق أخرى استغرقها تقيدهم، وما أن فُكت قيود طارق حتى هرع إلى جده الحاج عبد الرحمن و انحنى يُقبل يده وهو يحيه بترحاب فربت الجد على كتفه بحنان فسأله طارق: «أنت مين اللي عرفك بس يا جدي وقلق راحتك كده؟».

أجابه الحاج عبد الرحمن: «مفيش قلق ولا حاجة يا ولدي، نحمد ربنا إننا وصلنا في الوقت المناسب، الفضل في كل اللي حصل يرجع لربنا في الأول وللدكتورة جيهان اللي أول ما كلمتني ركبت الميكروباص التيوتة أنا وولاد أعمامك ونزلنا على مصر طوالي».

نظر طارق لزوجته بامتنان، فتهربت من نظراته بارتباك وهي تقول: «أنت مش ناوي ترحب بولاد عمك ولا إيه؟».

منحها طارق نظرة أُخرى محبة، وأسرع يعانق ضيوفه واحدًا تلو الأخر، وفجأة ارتفع صوت جرس الباب فتحفز الجميع، عادت الطرقات من جديد فأسرعت جيهان تلقي نظرة ثم قامت بفتح الباب بعنفٍ وهي تقول بحدة: «خير يا روان؟ أنتِ عاوزة إيه مش كفاية أوي اللي حصل لحد كده».

أسرعت روان تدخل الشقة وهي تقول مسرعة: «أنا عرفت مكان طارق يا جيهان، مراد كان حبسه في القصر، لكن الصبح خرجـــوه من.»

صمتت حين رأت طارق جالسًا أمامها، ثم جالت ببصرها في الصالة من حولها، فوجدت الحراس المكبلين بالحبال فأشرق وجهها بابتسامة كبيرة وهي تتقدم من طارق وتقول في فرح كبير: «حمد الله على السلامة يا حبيب».

لم تستطعْ إكمال عبارتها من الصفعة المدوية التي انهالت على وجهها، ألجمتها المفاجئة وهي تنظر إلى يد طارق المرفوعة في وجهها،

تجمدتْ الدموع في عينيها ومادت الدنيا أمام عينها وسقطت فاقدة الوعي.

***

– إيه اللي بتعمله ده يا طارق.

صاحت جيهان وهي تسرع إلى روان وتنحني عليها لتفحص نبضها في حين نهض الحاج عبد الرحمن وهو يقول معاتبًا: «ليه كده يا ولدي».

صاح طارق: «أنتَ مش عارف دي عملت فيا إيه يا جدي».

الحاج عبد الرحمن وهو ينظر إلى روان بقلق: «يظهر إن قعدتك في مصر نستك الأصول بتاعتنا».

كان مشهد روان وهي ملقاة على الأرض فاقدة الوعي، وخيط الدم بنساب على جانب فمها بشكل طولي، قد مس بعض من الشفقة في قلب طارق، وحين صاحت جيهان وهي تقول بقلق: «النبض ضعيف جدًا لازم ندخلها جوه على السرير عشان أعرف أشوف حالتها».

انحنى طارق ليحمل روان بين ذراعيه، لكن عينه اصطدمت بعيني جيهان الصارمتين، فوقف من جديد وهو يشبك أصابع يديه في خجل وارتباك، بينما نادت جيهان على شابين من الواقفين وأمرتهم بحمل روان إلى داخل الغرفة.

مرتْ لحظات قليلة حتى استعادت روان وعيها، فوجدت جيهان تجلس جوارها وتعتذر لها عن ما حدث من طارق معللة فعلته باضطراب أعصابه من الأحداث التي يمرون بها، تأملتها روان للحظات ثم قالت: «و أنتِ بنفسك اللي قاعدة جانبي وبتسعفيني؟!».

جيهان ببساطة: «ده طبيعي أنتِ ف بيتي، وأي حاجة تصيبك أو تمسك تبقى في وشي»... ثم نهضت وهي تقول: «الحمد لله أنتِ تقدري دلوقتي تقومي وتتحركي عادي، أنا هاخرج للناس اللي بره أطمنهم».

وما أن وصلت إلى باب الغرفة حتى التفتت إلى روان قائلة بابتسامة: «و ابقي البسي بعد كده حاجة طويلة بدل الهدوم اللي أنتِ مش لابساها دي، عشان لمَّا تقعي بعد كده الرجالة تعرف تشيلك من غير ما يحصلهم انهيار عصبي».

ابتسمت روان ثم نظرت إلى جيهان وهي تقول بصدق: «أنا آسفة يا جيهان، آسفة على كل حاجة حصلت مني في حقك، أنتِ فعلًا ست عظيمة».

***

انسابت الدموع غزيرة من عيني روان وهي تجلس في صالون منزل طارق وتنفي عن نفسها أي علم بمعرفة مكان طارق، عقَّب الحاج عبد الرحمن على كلامها بأنَّ ما حدث قد حدث ونحمد الله على أنَّ الأمور انتهت على خير بعودة طارق، وكل ما عليهم الآن أن يُسلِموا هؤلاء الحراس إلى الشرطة حتى يبرئوا ذممهم أمام الله والقانون.

تدخل طارق: «الموضوع مش بالبساطة دي يا جدي».

ثم التفت إلى روان ونظر إليها بثبات وهو يقول: «في كلام كتير عرفته ولمَّا تعرفوه أنتوا كمان هتفهموا معنى كلامي».

ثم أخبرهم بكل ما قاله مراد، وحين كشف لهم عن حقيقة أصل جودت الغامري، لم تتمالك روان نفسها وقد مَر أمام عينها شريط حياتها الزوجية كاملًا فانفجرت صارخة وهي تلطم خديها بقوة: «هي حصَّلت إسرائيلي، إسرائيلي، أنا كنت متجوزة من إسرائيلي».

نهضت جيهان مسرعة وهي تحتضنها بقوة تحاول تهدئتها وتمنعها أن تؤذي نفسها أو تدخل في نوبة انهيار عصبي، وما أن هدأت الأمور بعض الشيء حتى تحدث طارق لروان بتجهمٍ محاولًا توضيح بعض الأمور: «في الحقيقة كلمة مواطن إسرائيلي ما ظهرتش إلَّا بعد سنة 48، وذكي ميخا ده كان مواطن مصري زي أي يهودي من اللي كانوا عايشين هنا وقتها، لكن هو فِضل في مصر وغيَّر ديانته أو أخفاها، يعني اللي عاوز أقوله إنك مش مذنبة في حاجة، أنتِ اتجوزتي من راجل مسلم بالأوراق والظواهر لكن القلوب يعلمها الله».

ثم نظر إلى جده وهو يقول: «أظن إن بعد اللي سمعتوه عرفتم إن الموضوع أكبر من مجرد خناقة تتحل في قسم شرطة، الموضوع يخص البلد كلها وأجهزة متخصصة بس هي اللي معنية بالمواضيع دي، لكن قبل ما نعمل أي خطوة لازم ننقذ خالد الأول لأن حياته في خطر، وأكتر حاجة قلقاني إن مراد يتجنن بعد ما يعرف خبر هروبي من إيده، فيقوم بخطوة طايشة تيجي على دماغ خالد».

نظرت روان إلى ساعة يدها وقالت بصوت مختنق بالعَبرات: «لازم شاهيناز تعرف مكان خالد، أنا عارفة قد إيه هي بتحبه ومش ممكن تسمح لأي حد يؤذيه، لكن أنا لازم أعرَّفها قبل ما تروح اجتماع النهاردة عشان تلحق تتصرف».

تساءل طارق: «اجتماع إيه ده؟».

روان: «الوسخ مراد كان عامل اجتماع عشان يقسم تركة أبوه الأوسخ، طبعًا الكلام ده بالنسبة ليا منتهي، أنا مش هاحضر الاجتماع ده، ويَحرم عليا أي جنيه من التركة الزبالة دي كلها».

نهض طارق و اقفًا وظلَّ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا وهو يفكر في عمق، وظلَّ على حالته لمدة تزيد عن العشر دقائق كاملة، ثم نظر إلى جميع الحضور في شقته وقال بلهجة مُلئت بالحسم والعزم والأمل: «المرحلة اللي جاية محتاجة مننا تخطيط دقيق ويتنفذ بحذر، لكن وقبل أي كلام لازم الكل يتعاهد على التعاون والصدق في العزم».

سأله الحاج عبد الرحمن عمَّا ينوى، فنظر طارق إلى جيهان وهو يقول: «فاكرة يا جيهان البرنامج اللي شوفناه من أسبوع في الناشيونال جيوجر افيك، البرنامج اللي كان بيتكلم عن البراكين».

هزت جيهان رأسها متذكرة وهي تقول: «فاكرة طبعًا، دى كانت حلقة مرعبة جدًا».

تابع طارق حديثه: «مفيش قدامنا خيار تاني غير المواجهة، الموضوع بقى مسألة حياة أو موت، الضغط اللي إحنا فيه لازم يكون

في بعده انفجار، زي البركان بالظبط اللي عشان يحصل بياخد سنين كتير جدًا ومع الضغط الشديد المعادن نفسها بتدوب وبتنصهر وبتضغط على القشرة الأرضية لحد ما يحصل الانفجار، بياخد كل اللي في وشه، بيقضي على أي شكل من أشكال الحياة، وفي المرحلة دي بيكون اسمها (اللافا)».

طرق الحاج عبد الرحمن الأرض بعصاه مرتين مفكرًا ثم رفعها وقال: «أنتَ عارف يا ولدي إننا مش ممكن نتخلى عنك أو نخذلك أبدًا، أنا و اثق فيك وو اثق في تفكيرك وعارف إنك راجل».

بعد قول الحاج عبد الرحمن ردد كل الرجال الحاضرين: «كلنا معاك يا طارق، كلنا معاك يا ولد عمنا».

وارتسمت على شفتي طارق ابتسامة رضا يشوبها كثير من الحذر لأنه بهذا القول من الرجال تحمل مسئولية كل ما هو قادم من أحداث يعلم جيدًا أنها ستحمل في طياتها المرحلة الأخيرة في المواجهة مع كيان الشر الذي يواجهه، (مرحلة اللافا).

***

–26–

إذا كنت تخشى الخيبة
تجنب الثقة المطلقة من البداية!
–ألبيرت آينشتاين–

منذ أن دخل مراد إلى مقر المجموعة وسار إلى مكتبه لاحظ جميع من شاهده اضطرابه الشديد وعصبيته المفرطة.

كان مراد يدرك جيدًا أنه يمر في تلك الآونة بأصعب مراحل حياته، لقد أدار والده العمل على مدار العقود السابقة في سريه تامة ودون أن يكتشف أحد حقيقته، وحقق جميع الأهداف التي وُكِلت إليه، حتى أنه صار من الصعب والمستحيل التفريط فيه أو في تلك المكاسب التي وصل إليها خاصة على الصعيد العالمي، ثم رحل إلى الأبد، وعليه الآن أن يثبت هو الأخر نفسه.

كان يدرك أنَّ هناك الكثير من التخوفات داخل إسرائيل من عدم مقدرته على أن يملأ الفراغ الذي تركه والده، وهناك مطالب بأن يتم حل هذا الكيان بشكل تدريجي عن طريق دمجه في كيان اقتصادي أخر، سيكون الموضوع على شكل شراكة في بادئ الأمر ثم يبتلع الكيان الجديد الكيان القديم.

لم تكنْ المشكلة في داخل مصر فهناك أكثر من بديل يمكن تأهيله للقيام بنفس الدور الذي تقوم به المجموعة وشركاتها، لكن

المشكلة الكبرى كانت على الصعيد الدولي والذي كان يُشكل خطرًا اقتصاديًا يجب احتوائه بأقصى وقت، وحين يتم هذا الأمر لن يصبح لوجوده أي أهمية وقد يتم تصفيته على الفور... هو يعلم جيدًا القاعدة الأبدية والتي تعتبر عقيدة ونقطة ارتكاز، بتر أي جزء قد يهدد الكيان وأن يتم هذا بأقصى سرعة، أهم الأولويات هو صحة الكيان، الهدف الكبير والذي تتضاءل إلى جانبه أي تضحيات مهما تكون.

كان مراد يدرك كل ذلك جيدًا، وكان يريد أن ينهي كل الأمور العالقة هنا بمصر حتى يتفرغ للمعركة الكبرى التي تنتظره بالخارج، وحتى أخر لحظة كانت الأمور تحت سيطرته ولم يبقَ سوى مسألة اللاب توب والتي توشك على الانتهاء، حتى تلقى تلك المكالمة في تمام الساعة الثامنة، حيث أخبره أحد الحراس الذين كانوا برفقة طارق أنَّ ما وجدوه بالشقة لم يكنْ الجهاز الذي كانوا يبحثون عنه ولكن فقط مفتاح الخزينة البنكية التي تم وضع اللاب توب بها.

كانت ثورته عارمة وصراخه يصل إلى أخر القصر وهو يطلب من الحارس أن يعطي التليفون لطارق وحين سمع صوته صاح بكل ما بداخله من غضب: «أنت بتلاعبني أنا يا ابن ال.»، فقاطعه طارق بحزم: «من غير غلط يا مراد وخلي بالك أنتَ لسه محتاجني».

صرخ مراد من جديد: «وأنا مش عاوزك تنسى إن عيالك في إيدي، فين اللاب يا طارق؟». فجاءته الإجابة قاطعة وساخرة: «في إسكندرية».

كاد مراد أن يعتصر التليفون الذي بيده وهو يصرخ: «إسكندرية

إيه يا ابن.»، فقاطعه طارق ثانية: «إحنا مش قولنا بلاش قلة أدب بقى،أنتَ سألت و أنا جاوبت، اللاب في خزنة بنك في إسكندرية، كلها ساعتين زمن رايح وزيهم جاي ويكون الجهاز في إيدك».

أخذ مراد يلف في وسط الحجرة كالمجنون وهو يقول: «اسمعني كويس يا طارق، حياة عيالك كلها قدام اللاب توب ده أنا هفضل متحفظ عليهم لحد ما يوصلني الجهاز أنتَ فاهم ولا لأ».

أجابه طارق بهدوء: «فاهم، طبعًا فاهم».

كان هذا هو الحوار الذي يدور بذهن مراد وهو يدخل إلى مكتبه، حيث كان الاجتماع الذي دعي إليه كل من أخته شاهيناز وزوجة أبيه روان، ألقى التحية على الحضور في اقتضاب وجلس على رأس مائدة الاجتماع، سألته روان: «في إيه يا مراد مالك؟».

نظر لها بحدة وهمَّ بأن ينفجر في وجهها لكنه آثر الصمت ثم التفت إلى المستشارين القانونيين الحاضرين وقال لهم: «الأساتذة تتفضل تعرض قدام الوَرثة موقف الأملاك القانوني بكل وضوح».

بدأ المستشارين ولمدة تزيد عن الساعة والنصف في استعراض الأملاك المتناثرة حول العالَم والتي هُم بصدد تقسيمها حسب الشرع والقانون، ثم أخبروا كل طرف من الأطراف بنصيبه في التركة، ثم سأل مراد شريكتيه في التركة: «لو في واحدة عاوزة تاخد نصيبها فلوس تتصرف فيه براحتها تقول عشان ندبر لها الموضوع ده قبل ما نوقع العقود».

كانت الإجابة التي اتفقتا عليها أنهما تريدا أن يحدد نصيبهما على هيئة شركات وعقارات تستقلان بإدارتها في حين تُقسَم الأرصدة التي في البنوك على حسب ما يُحدده القانون.

و افق مراد على مطالبهم ببساطة ولم يبقَ إلَّا توقيع عقود التقسيم، قُدمت الأوراق الخاصة بروان إلى المحامي الخاص بها والجالس إلى جوارها ليفحصها قبل توقيعها من موكلته في حين أخذت شاهيناز الأوراق بنفسها وجلس إلى جوارها أحد المستشارين العاملين بالمجموعة ليرشدها في عملية التوقيع.

استغرق الأمر حوالي ربع الساعة حتى تم التوقيع على كل العقود، ثم جمع المحامين العقود ونهضوا ليتابعوا تفاصيل تسجيلها وقبل أن يغادروا استوقفهم مراد بسؤاله: «في أي أوراق مطلوبة بخلاف اللي في إيديكم».

أجابه أحدهم: «لا كله كده تمام يا مستر مراد».

أشار له مراد بيده: «طيب ابدؤوا في الإجراءات اللي اتفقنا عليها».

وما أن انصرف المحامين حتى نهضت روان في إثرهم وهي تقول: «أروح أنا مكتبي وأسيبكم مع بعض على راحتكم».

استوقفها مراد قائلًا ببرود: «مش هينفع يا روان، أنتِ دلوقتي ملكيش مكتب هنا».

نظرت له روان بدهشة من معنى كلامه فأجابها بهدوء مستفز:

«ده مش كلامي يا هانم، الأوراق اللي اتوقعت منكم هي اللي بتقول كده، مفيش حد منكم أنتوا الاتنين ليه حاجة هنا».

قالت روان بعصبية: «يعني إيه؟! المحامي بتاعي راجع الأوراق كلها قبل ما أوقع على حاجة».

ونهضت شاهيناز من مقعدها وهي تقول بحدة: «يعني إيه الكلام ده يا مراد، و أنا المحامي شرح ليا كل ورقة من الأوراق اللي وقعتها».

أطلق مراد ضحكة مفتعلة عالية وهو يقول: «هنا ييجي دور الفلوس اللي بتشتري أي حاجة وتحقق أي طلب في الحياة، قبل ما نقعد القعدة دي عملنا بحث بسيط على المحامي اللي بتتعاملي معاه يا روان وف مشوار بسيط من زميل ليه من عندنا في المجموعة بشنطة فيها المبلغ اللي يخليه مش يبيعك أنتِ بس لأ ويبيع نفسه كمان لو حبينا.

وبالنسبة للمحامي اللي كان قاعد جانبك ده يا شاهي يا حبيبتي، ده موظف جديد في العلاقات العامة في المجموعة، هو أصلًا معاه ليسانس آداب ومش محامي خالص، لكن رشحه ليا واحد من المستشارين القانونيين في المجموعة اتعرف على الولد في عملية نصب خرجه منها، وعدناه بالتعيين في المجموعة ودربناه على المشهد ده أكتر من مَرة عشان يقدر يقنعك ويخليكي توقعي على العقود».

هزت شاهيناز رأسها نافية: «الكلام ده مش صحيح، أنا راجعت الأوراق بنفسي قبل ما أوقع، مفيش أي حاجة من الكلام ده».

مراد ببرود: «لأ، في ورقة من الأوراق اتحطت باحتر افية بتقول إنكم مو افقين على إن التركة كلها تتحط تحت تصرف مراد جودت الغامري ومفيش أي جنيه يتصرف بدون الرجوع ليا في المقام الأول».

صرخت شاهيناز بغضب شديد: «أنتَ كده بتنصب عليا يا مراد، أنتَ كده بتسرق أختك».

مراد: «اعذريني يا شاهي من المستحيل أبدًا إني أو افق على تقسيم الكيان الاقتصادي الجبار اللي له وزن في العالم كله عشان شوية مسميات تافهة زي الميراث والتقاليد أو حتى القانون، لكن بالنسبة ليكي يا شاهي الفلوس كلها تحت أمرك والشركات قدامك اختاري اللي أنتِ عاوزاه يكون بين إيديكى».

شاهيناز: «أنا كده هشتغل عندك مش هكون صاحبة حق والكلام ده ما ينفعنيش، لازم تفهم إني أنا مش هسكت أبدًا على الموضوع ده، خالد كان معاه حق في كل الكلام اللي قاله، ولكن خليك فاكر إنك أنتَ اللي بديت بالعداوة يا مراد».

وتركته و انصرفت ترتجف من الغضب، وقفت روان للحظة في صمت وقد بدا عليها الضياع والارتباك ثم خرجت مسرعة من الحجرة دون تعقيب، وما أن أغلقت الباب خلفها حتى تناول مراد تليفونه بسرعة وأجرى اتصال في قلق، لبث الأمر دقائق حتى تلقى إجابة فصاح: «أنتَ فين دلوقتي يا حيوان؟».

أجابه الصوت على الفور: «إحنا وصلنا الإسكندرية يا مستر مراد».

قال مراد بحدة: «أول ما تاخدوا اللاب تكلمني فورًا، أنتَ فاهم».

أغلق مراد الاتصال في توتر متزايد، وفي الخارج كانت روان تسرع الخطى حتى تلحق بشاهيناز وما أن شاهدتها قرب المصعد حتى هتفت تستوقفها قائلة: «أنا عارفة إن الأيام حطتنا في وضع فرض عليكي إنك تكرهيني على الرغم من إنك لو تعرفي الحقيقة هتلاقيني ضحية تستاهل منك الشفقة، على العموم أنا مش عاوزة أتكلم دلوقتي في اللي فات، أنا عاوزة أتكلم في اللي جاي».

نظرت لها شاهيناز في ارتياب فتابعت روان وهي تجذبها من يدها: «لكن مش هينفع نتكلم هنا لازم نقعد أنا و أنتِ في مكان هادى لأن الكلام اللي عندي رجليكي مش هتقدر تشيلك بعد ما تعرفيه».

***

قاد طارق سيارته فوق كوبري السادس من أكتوبر في هدوء شديد...

كانت حالة من الطمأنينة تسيطر عليه وتجعله لا يأبه بالزحام الشديد المحيط به ولا بأبواق السيارات التي تنطلق من حوله، أخذ نفسًا عميقًا ثم زفره في قوة وهو يستمتع بمشاعر الرضا والسَكينة عقب زيارته لشيخه في منزله.

لقد كان يعتبر تلك الزيارة أول وأهم مرحلة في خطته، بحسب ما قال لزوجته المتعجبة من تركه لهم في مثل تلك الظروف التي يمرون بها، أنه لن يستطيع أن يكمل خطته بدون فوزه أولًا بدعاء وبركة شيخه، وتذكر جلوسه بين يدي شيخه في منزله وهو يروي له كل ما حدث معه وما علم به، ثم أفضى له بما ينتوي عمله، واستمع إلى نصائح شيخه في احترام و إنصات بالغين، وحين اعترف له بخوفه من الفشل والذي يعني وقتها خسارة كل شيء بما فيه حياته نفسها، ثبته الشيخ باليقين وزرع بداخله الاطمئنان.

أخبره أنه لا يوجد أفضل من أن يسير على طريق الحق مدافعًا عنه متحملًا الأذى في سبيل نصرته، أخبره بأن الله يدافع عن الذين أمنوا، وأن الله تعهد بنصرة المظلوم حتى يقتص له من ظالمه، ولا يغرنك علو الظالم وبهرجه ولا تخدعك عُدته وعتاده، وتذكر قدرة الله فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، والقادر على أن يحفظ أولياءه الصالحين ونصرة جنوده المخلصين.

تشرب طارق بكلماته وعباراته، ثم سأله المدد وألَّا ينساه من بركة دعائه الكريم، فهو سلاحه الوحيد، وحين ودعه الشيخ على باب مسكنه وربت على كتفه وهو ينظر في عينيه قائلًا: «ألا ذلت تذكر يا ولدي حين جئت منذ خمسة عشر عامًا إلى الزاوية واعتكفت بها، هل تذكر ما كان بيننا من كلام حين آن لك الخروج».

سرح طارق بفكره متذكرًا كلامه حينها.

***

– الآن يا ولدي آن لك الخروج.

لاح الانزعاج على وجهه فتابع الشيخ:

– ليس بوجودك هنا وحده النفع، فقد يستخدمك ربك لِما هو أنفع، فالحياة ما زالت أمامك في مقتبلها، عمَّرها بما يرضي خالقك.

***

حين مرت الذكريات على عقل طارق لاح على وجهه التعجب، فقال له الشيخ: «قد يكون ما يحدث الآن هو سبب توبتك منذ أعوام طوال، وقد يكون هو سبب لقائنا في الأساس، بل قد يكون سبب حياتك ذاتها ومرورك بكل ما مررت به إلى الآن».

ثم وهو يشد على يده مودعًا: «وتذكر يا ولدي إذا عزمت فتوكل على الله».

***

–27–

إنما يحصد القهر من يزرع القهر في زمني
إنما يلبس الخوف من ينسج الخوف في بدني
إنما الموت موت ابتلائي
أما أنا فسأبقى أرقص حريتي
وأدافع بين هدير الملايين عن وطني
–محمد الفيتوري–

لهثت روان وهي تركض خلف شاهيناز مجتازين أروقة القصر صاعدتين إلى الطابق العلوي حتى وصلت إلى غرفتها، فتحت بابها في عنف وهي تقتحمها بسرعة مما جعل المربية الأجنبية والتي تقوم برعاية الطفلة الصغيرة تنتفض خوفًا على الرغم من يد روان الممدودة والمشيرة لها بالهدوء.

هرعت شاهيناز إلى طفلتها الصغيرة الغافية في فراشها كملاك صغير، و اقتربت منها وأخذت تتأملها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية، ثم التفتت إلى المربية وطالبتها بإعداد حقيبة ملابس الطفلة بسرعة، أسرعت الفتاة لتنفيذ الأمر، في حين جلست شاهيناز ووضعت يدها على وجهها و انفجرت في نوبة بكاء شديد، فقد كانت لا تتخيل وجود زوجها محبوس بجوارها وهي لا تستطيع الذهاب إليه وتحريره مما هو فيه.

جلست روان بجانبها وهي تحاول تهدئتها وتخبرها بأن الدور الذي قامت به سيكون أنفع لخالد وللجميع من أي مخاطرة غير محسوبة وأن كل ما عليها أن تفكر فيه الآن هو الهروب بابنتها الصغيرة بعيدًا عن قبضة مراد قبل أن تُحتدم الأمور أكثر في الساعات القليلة القادمة.

استسلمت شاهيناز لكلماتها وأخرجت الأيباد الخاص بها وأخذت تعمل عليه بسرعة وحماس، بينما أشعلت روان سيجارة وأخذت تجذب منها أنفاس متوترة وهي تارة تتطلع إلى الفتاة التي تتحرك في أرجاء الغرفة وتعد حقيبة الصغيرة وتارة تنظر إلى شاهيناز المنهمكة في عملها، ساد الصمت لبرهة حتى صاحت شاهيناز بانتصار: «المطلوب حصل يا روان، خلاص كده كله تمام».

ابتسمت روان وهمت بالتعليق على كلامها لكن المربية تدخلت وهي تحمل الصغيرة والحقيبة الخاصة بها، نهضت شاهيناز فأخذت منها صغيرتها وتناولت روان الحقيبة منها وتحركا إلى باب الحجرة والذي فُتح بغتة على مصراعيه ووقف مراد على عتبته وهو يرسم على وجهه ابتسامه سمجة باردة وهو يقول: «على فين يا حلوين، مش الأول تاخدوا الإذن من صاحب المكان اللي مضايفكم».

ظلَّ مراد يتطلع إلى الفتاتان بتشفٍ وأحد الحراس يقوم بتقيد أيديهما خلف ظهريهما ويجبرهما على الجلوس على أرض الغرفة والتي كانت منذ قليل تخص شاهيناز، فأضحت مقرًا لمحبسيهما، وضع مراد ساقه فوق الأخرى وهو يشير لحارسيه ويأمرهما بعدم التحرك من أمام الحجرة أو السماح بالخروج والدخول منها لأي شخص إلَّا بأوامر شخصية منه.

نظر إلى المربية وأمرها أن تأخذ الصغيرة إلى خارج الحجرة، صرخت شاهيناز بلوعة على صغيرتها فترددت المربية لكن نظرة صارمة من عين مراد جعلتها تهرول إلى الخارج، بينما صراخ شاهيناز الهستيرى يتصاعد: «فرح.فرح، بنتي.بنتي يا مجرمين، بنتي يا مراد، أنتَ مش ممكن أبدًا تكون أخويا، إنت مجرم.مجرم، خلاص الصهاينة عملوا لك غسيل مخ نسوك أختك وعيلتك وكل الذكريات اللي عيشناها سوا، عملوا منك وحش بشع بيدمركل اللي حواليه».

أطل الغضب من عيني مراد وهو ينهض من مقعده ويقول لشاهيناز: «أنتِ عرفتي منين الكلام ده؟ فهميني مين اللي قال لك؟».

شاهيناز وهي تبادله بتحدٍ كبير: «أنا عرفت كل حاجة يا مراد، عرفت كل الجرائم اللي عملتها ف البلد وصدقني قريب جدًا هتتحاسب على كل اللي عملته ف حق الكل».

انحنى مراد يمسكها من شعرها بقوة وهو يعيد عليها سؤاله بلهجة مخيفة جعلت جسد شاهيناز يرتجف ارتجافة شديدة أمام عيني مراد اللتان يطل منهما غضب وشراسة لا حد لهما وارتجفت شفتاها وكأنها تحاول ترديد الكلمات، لاحظت روان ذلك فصرخت بكل طاقتها: «أوعي تتكلمي يا شاهيناز، أوعي تنطقي بأي حرف ممكن يريحه».

التفت لها مراد بغضب ثم ترك شعر أخته من يده وهوى بيده اليمنى على وجه روان بصفعة جعلتها تطلق صرخة عالية ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها وصرخت في وجهه بشراسة: «لا راجل يا

مراد، بتتشطر على بنتين وعامل عليهم دكر، صدقني بكرة هاكون أسعد واحدة و أنا بشوف دموعك بتنزل قدامي زي الحريم».

شعر مراد بالغضب يعصف بوجدانه وهو ينظر إليهما فنهض منفعلًا،وضرب بيده زهرية ثمينة كانت قابعة أمامه على المنضدة وهو يصرخ: «يا ولاد الكلب».

أخذ يتحرك أمامهما في ثورة عارمة وعقله يدور بسرعة جنونية يحاول استيعاب ما استجد أمامه من أحداث، كيف علمت أخته بحقيقته التي كان يخفيها عن الجميع، لا يوجد داخل مصر من يعلم بتلك الحقيقة سوى طارق وخالد وهما تحت قبضته، ولماذا لا تريد روان لأخته أن تتكلم؟ مَن تريد حمايته؟ هناك أمر يُدبَر من خلف ظهره، هذا مؤكد.

أخرج هاتفه المحمول و اتصل بأحد الحراس المرابطين على الغرفة المحبوس بها خالد، وسأله إن كان هناك من دخل الغرفة وجلس مع خالد، وحين تلقى إجابة بالنفي، زادت ثورته وهو يهدد الحارس بأن أي تقصير سيكون تكلفته حياته هو ومن معه من الحراس.

أغلق الاتصال ثم طلب رقمًا أخر فوجد الشبكة غير متاحة فاعتصر المحمول بيده وهو يحرك ذراعه على طولها ويهم بالإطاحة بالهاتف من يده، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة خشية أن يفقد البيانات التي على الهاتف، فصرخ من الغضب: «يا ولاد الكلب، يا ولاد الكلب».

لبث برهة يحاول تمالك نفسه ويرتب أفكاره، ثم أمسك التليفون من جديد وطلب رقمًا أخر وما أن تلقى إجابة على اتصاله حتى قال: «اسمعني يا مصطفى، أنتوا خلاص وثقتم العقود اللي اتوقعت النهاردة ولَّا لسه».

صمت قليلًا ثم تابع: «طيب تمام، اسمع أنا كنت عامل حسابي إني هسافر بكرة بالليل على انجلترا، أنا قررت أسافر النهاردة بالليل».

صمت قليلًا ثم قال بحدة: «مفيش حاجة يا مصطفى ممكن تأخرني، السكرتارية هترتب مع المطار عشان يكون عندهم علم إني مسافر على طيارتي الخاصة و أنا بنفسي هكلم الطيار يسبقني على المطار ويستعد للسفر، كل اللي أنا عاوزه منك انك تاخد جواز السفر بتاعي من السكرتارية وتروح على الجوازات تضيف عليه مر افق بسرعة، أنا عاوز الموضوع ده يخلص بأي تمن انت عارف مش مهم الفلوس».

وعاود الصمت للحظة ثم قال: «طيب اكتب عندك الاسم».

ونظر إلى شاهيناز بثبات وهو يقول: «فرح خالد عبد المجيد الصواف».

***

للمَرة العاشرة طلب مراد رقم الحارس المر افق لطارق دون جدوى، دائمًا غير متاح، عربدت داخل صدره فئران الدنيا كلها وهو يقتحم باب الحجرة المحتجز بها خالد، ووقف داخلها للحظات صامتًا

حتى تعتاد عينيه على الإضاءة المظلمة التي تقبع بها الحجرة، طالعه وجه خالد وقد ارتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة، أمسك مراد بياقة قميصه وجذبه بعنف وهو يقول: «أنتوا اتفقتوا على إيه من ورايا يا ولاد الكلاب؟».

وعندما لم يتلقَ رد سوى نفس الابتسامة الساخرة، فنظر إلى عيني خالد وهو يضغط على حروف كلماته: «سؤال واحد وعاوز إجابته، أنتوا ازاي قدرتوا تبلغوا شاهيناز بالكلام اللي دار بينا هنا؟ مين اللي بلغها أنتَ ولا طارق؟ طيب ازاي ورجالتي ملازمينكم في كل حتة؟».

أطلق خالد ضحكة مجلجلة جزلة وقد لمعت عيناه ببريق شديد مما جعل مراد يبلغ منتهى الانفعال وهو يمسك برأس خالد ويرطمها بالجدار الذي خلفه وهو يصرخ: «انطق يا ابن الكلب، انطق حالًا لموتك في إيدي».

ظلَّ يضرب رأس خالد بالجدار في قوة وجنون لدقيقة أو يزيد، لاحظ مراد نزيف الدماء المنساب من مؤخرة رأس خالد والذي أخذ يصبغ القميص بلون قاتم، سرت في جسده رعدة حين طالعت عينيه مشهد الدماء وأرخى أصابعه عن جسد خالد الذي سقط منسابًا على جانبه دون حراك، ركل بقدمه الجسد المسجى أمامه وهو يقول: «قوم أنتَ بتستهبل، بطل تمثيل وكلمني زي ما بكلمك».

لكن لم يجاوبه إلَّا الصمت.

***

–28–

في الحقيقة؛
إن الجميع سوف يتسببون في جرحك يوما ما!
ولذلك فيجب عليك أن تجد هؤلاء
الذين يستحقون أن نعاني من أجلهم!
–بوب مارلي–

لساعة أو يزيد لم تكفْ شاهيناز عن البكاء أو جسدها عن الارتجاف، حاولت روان أن تخفف عنها ببعض كلمات المواساة، لكن الحالة التي كانت تسيطر عليها أكبر من أي كلمات تُقال.

كان يجتاح شاهيناز شعور بالخوف أخذ يتصاعد مع مرور الوقت، خوف كان مبعثه تصورها لفكرة أن ابنتها الصغيرة على وشك أن تضيع من بين يديها، وهي مقيدة وعاجزة عن أن تقوم بأي رد فعل، خطر يتهدد ابنتها وعجْز يُكبل إرادتها وخوف يعصف بكيانها، كيف تتعامل مع كل ذلك وهي وحيدة معزولة عن معلمها، لا تستطيع أن تستشيره أو تستمد منه العون، لا تملك الاطمئنان على حاله أو معرفة ما أصابه.

كيف يحدث كل هذا وهو على بعد خطوات منها، وكذلك ابنتها التي أُخِذَتْ من بين يديها عنوة، تقبع على بعد خطوات منها، كل هذا يحدث في مسكنها الذي تربت ونشأت فيه، قضت فيه سنوات طفولتها وصِباها وشبابها.

هل كان يجول في ذهنها يومًا أن يصير هذا المكان في يوم من الأيام محبسًا لها ولأسرتها الصغيرة؟ أي جنون هذا الذي تحياه، لقد فقدت في غضون ساعات قليلة كل مَن تحب وما تملك، حتى جذورها وأصولها تُنتزع منها.

أي ضياع هذا الذي ترتع فيه، وهل هناك أقسى من ضياع الهوية؟ حين تضحَى بلا عقيدة أو مرجعية، حين تصبح كل مبادئك وقيمك التي كنت تدافع عنها وتناضل هباءً منثورًا، أأصبحت صهيونية؟ كل ما بذلته من جهد وغضب وثورة، أكانت تحارب وتقاوم ذاتها، أكانت تحتج وتستنكر كيانها، أكانت تقتل القتيل وتقف بعدها تستنكر فوق رفاته.

كيف تستطيع أن يتحمل كاهلها ماض ضارب في القِدم من المجازر والإبادات الجماعية والاغتيالات والتنكيل والاغتصاب والترويع، كيف تستطيع قدماها أن تحملها وهي تقبع تحت وطئة كل هذا التاريخ الأسود، وحتى وإن استطاعت أن تتحمل كيف تواجه العالَم وعلى وجهها يرتسم قبح تلك الحقيقة.

إن كل ما أصابها وأصاب عائلتها حدث بسبب عنادها وتكبرها وغرورها، لو لم تخالف كلام زوجها لما حدث كل ذلك، وماذا جَنت؟ لقد ضاع منها كل شيء، سيطرت عليها تلك الفكرة الأخيرة حتى تحولت على شفتيها إلى صراخ هستيري: «أنا السبب.أنا السبب.أنا السبب».

وانتابتها حالة من الهياج، وأخذ جسدها ينتفض بشدة، ويتشنج، ويرتطم بقوة بأرضية وجدار الحجرة من خلفها، على الرغم من الأغلال التي تكبله، فصرخت روان بدورها وهي تميل بجسدها كله تجاه شاهيناز وتقول باكية: «إهدي يا شاهيناز ما تعمليش في نفسك كده، إهدي، وحياة بنتك فرح ما تعملي في نفسك كده».

تابعت شاهيناز صراخها: «أنا لازم أخرج من هِنا، خرجوني من هِنا، خرجوني من هِنا».

روان وهي تنتحب : «حاضر، والله هاخرجك، حاضر بس ما تعمليش في نفسك كده، إهدي بس عشان نشوف هنخرج ازاي».

***

كانت المسافة التي تفرق بين غرفة البستاني والقصر عادة ما يقطعها مراد في حوالي العشر دقائق سيرًا على الأقدام بخطوات رياضية رشيقة اعتاد على الحركة بها، لكنه حين قطع ذلك الطريق بعدما خرج من الغرفة استهلك قرابة النصف الساعة كاملة.

كانت خطواته منكسرة، قامته منحنية، كتفاه متهدمة، تعكس صورة وجهه الكئيب، الشارد، مقطب الجبين، حالته النفسية وحقيقة أفكاره، كانت المَرة الأُولى في حياته يواجه مثل هذا الموقف، حين شاهد الدماء تنساب من مؤخرة رأس خالد وتُغرق قميصه، تلبسته حالة لم يعهدها من قبل.

رجفة شديدة تملكت جسده وعَرق بارد انساب يُغرق ظهره حتى أنه شعر ببرودته تُغرق ملابسه على الرغم من برودة الطقس المفرطة، كان يطالع جسد خالد المسجى أمامه بعينين كادتا من شدة جحوظهما أن تخرجان من محجريهما، وهو يقبض على ياقتيه بيدين متحجرتان متيبستان، حتى عندما ترك خالد ظلَّ متخشبًا في موضعه لمدة تجاوزت الخمس دقائق، وحين نهض على قدميه أحس بالرجفة تعتري ركبتيه فانحنى يمسكهما براحتيه متلاحق الأنفاس.

بعد لحظات وقف يواجه الحارس الواقف يتابع المشهد بعينين زجاجيتين من على بعد عشر خطوات أمام باب الحجرة، نظر له بعينين زائغتين وهو يشير إلى جسد خالد: «تعالى، شوف ماله ده».

ولم ينتظرْ النتيجة بل فرَّ مسرعًا من الحجرة كلها، لم يقوَ على الوقوف لسماع نتيجة ما اقترفت يداه، لم يكنْ يشعر بالندم أو بالخوف بل كان الشعور المسيطر عليه هو الاشمئزاز، الاشمئزاز من منظر الدم، والذي تناثرت قطرات منه على أطراف أصابعه، لم تكنْ فكرة ارتكاب القتل نفسها هي ما تؤرقه وتعصف به على هذا النحو، بل كان أكثر ما يؤرقه هو ارتكابها على يديه.

حين سافر إلى الخارج وبدأ حياة البيزنس مع والده وتتلمذ على يديه تعلم المبدأ الميكافيلي، الغاية تبرر الوسيلة، والضرورات تبيح المحظورات، وكثيرًا ما كان يرى والده يصدر الضوء الأخضر لتنفيذ العديد من العمليات القذرة، وتدرب هو كذلك على إصدار تلك التعليمات، ولكنه كان يظل دائمًا بعيدًا في منأى عن تلويث يديه بتلك الأعمال.

أما في هذه المَرة أزهق بيده تلك الروح البشرية، وذاق طعم الدم، ورفت على شفتيه شبح ابتسامة وهو يُقر، لقد وصلت إلى نهاية اللعبة وصلت إلى مرحلة المسخ، حين ركب الطائرة في سفره للعملية الأُولى وجلس إلى جواروالده أسبل عينيه على المقعد وجال بخياله في عوالم من السطوة والسلطة والصراعات الاقتصادية، ولكن لم يدرِ بخلده أبدًا أن يصل إلى تلك المرحلة، وأطلق زفرة قوية من فمه وهو يفكر، إنه لم يكنْ أبدًا مخيرًا في يوم من الأيام في كل خطوات حياته، لقد تم إقحامه في هذا السبيل الذي سلكه دون أن يملك أي خيارات أخرى.

لقد كان ينظر إلى والده على أنه أيقونة النجاح، القدوة والحلم، والده الذي يملك كل شيء تقع عليه عينيه، ويحقق كل رغباته دون حتى أن يطلبها، والده الذي يحظى بمكانة رؤساء الدول في كل مكان يذهب إليه، كيف لا يتبعه في كل خطو اته ويحذوا حذوه.

إنه غير نادم على أي شيء يُقربه من صورة والده في عينيه، مَرة وحيدة فقط، مَرة وحيدة اهتزت تلك الصورة في عينيه، حدث هذا حين كان بصحبته في زيارة إسر ائيل، يومها ولأول مَرة في حياته يرى تلك النظرة من الضعف والتزلف والرياء والخوف في عيني والده وهو يواجه القيادات هناك.

وحين تملكته الحيرة والتعجب، أخبره والده أنه وكل ما يملك صنيعة هذا النظام، وهذا النظام هو الوحيد الذي يملك هدم كل ما وصل إليه، وعندما قام بجولته وشاهد كل ما سُمح له أن يشاهده أبدى دهشته واستحسانه وفخره ومرحه بكل ما عُرض عليه.

وحينما أنهى رحلته كان قد اتخذ قراره واحتفظ به لنفسه، أنه لن يفعل ما فعله والده ولن يستسلم لهذا الكيان الأخطبوطي كما فعل والده، سيخط طريقه منفردًا مستقلًا، سيكون أقوى من الجميع، لن يرضخ يومًا لأحد، سيكون في القمة ويجعل الجميع تحت أقدامه، قد يبدي بعض الطاعة واللين لفترة محدودة حتى تستقر له الأمور، وعندها سيبدأ مجده الفريد.

سيصطحب معه ابنة أخته الصغيرة فرح، لن يتركها في هذا المستنقع الآسن، لن يتركها هنا لأمها لتربيها على كراهيته وتقطع صلته بها، لن يتركها لأمها تربيها وفق عقلها الذي يحمل العديد من الأفكار الشاذة التي تعربد داخله.

هناك باعث سيكوباتي خفي أخر لا يريد أن يعترف به، هو ألَّا يجعل أمام أخته شاهيناز خيار، إما أن تستسلم له أو سيحرق قلبها على صغيرتها، سيهرب بها الآن، ومَن يعلم فقد يكون هذا سببًا يجعل شاهيناز وفي يوم من الأيام تسافر هي الأخرى وتنضم إليه، ما الذي سيجبرها على أن تمكث هنا وحيدة وقد فقدت كل من تحبهم؟ حتمًا ستهرع إليه، وحينها سيضُمها كأخ كريم وتكون هي وابنتها أسرته الصغيرة.

سيُنشئ فرح كابنة له، فهو يعلم أن حياته المقبلة لا تسمح له بترف الزواج وتكوين أسرته الخاصة، لن يسمح لنفسه أن يقذف بها إلى هذا الأتون الملتهب الذي يحييه، كما فعل والده معه وقذف به إلى هذا الجحيم.

أحيانًا يسرح به خياله إلى حياة أخرى، حياة يكون فيها ابنًا لأسرة بسيطة، أبًا عاديًا مستورًا أو حتى دون ذلك، حياة يكون فيها أكبر همومه السعي على لقمة العيش وتوفير سبل المعيشة الضرورية، فرد كأي فرد من أبناء الشعب الذي طالما نظر له بازدراء، حين تجتاحه تلك الأفكار ينفضها من عقله سريعًا خشيةً أن تتوغل بداخله فتسيطر عليه وتضعفه.

أخذته أفكاره بعيدًا ولحالة من النشوة نسى معها كآبته الأُولى وخالد الذي ما زالت دماؤه تلطخ أنامله، وخطا إلى داخل القصر، والسماء تعلن غياب ملكوت الضياء وسيطرة عالَم الظلام، و اتجه إلى مكتبه وما أن دخله حتى انطلق هاتفه يعلن عن اتصال من مستشاره القانوني.

تلقى مراد الاتصال بسرعة: «أيوه يا مصطفى خلصت جواز السفر؟».

صمت قليلًا وهو يقول بقلق: «موضوع إيه اللي أهم من جواز السفر اللي قولت لك تعمله؟».

عاود الصمت للحظات ثم انفجر في غضب: «حملة إيه اللي على السوشيال ميديا يا مصطفى؟».

تلقى الإجابة فعاود الصراخ: «أنت مجنون يا مصطفى، طبعًا كل الكلام ده كذب في كذب، صفقات مشبوهة إيه اللي المجموعة متورطة فيها، و إيه علاقة إسرائيل بينا يا مصطفى، هو كل اللي بيتنشر على

السوشيال ميديا صح؟ في إيه يا مصطفى أنا هعرفك شغلك ولا إيه، التهم الخطيرة لازم تكون في مستندات تؤيدها، لازم تعرف لي مين ورا الموضوع ده وتخرب.»

قاطعه مصطفى بتعليق من الجانب الأخر فانفجر مراد من جديد: «مستندات إيه؟ المستندات دي كلها مزورة، مزورة يا مصطفى، اطعن عليها قدام المحكمة».

كان يدور في أرجاء حجرة المكتب وهو يستمع لكلمات أخرى ثم يتساءل بحدة: «قناة إيه كمان اللي عاملة الحملة دي؟».

وحين تلقى الإجابة أطلق سبة بذيئة وقال ساخرًا: «قناة الدنيا، أنتَ عارف مين صاحبها ولا أقول لك، ده يبقى أبو روان أرملة الباشا الكبير، طبعًا ليها مصلحة، أرفع قضية بسرعة على القناة دي يا مصطفى لازم الناس دي تتعلم الأدب».

كاد مصطفى أن يغلق الخط لكن صياح مراد استوقفه: «مصطفى، الجوازفين يا مصطفى، أنا طالع على المطارفورًا، عارف إن الطيارة بعد خمس ساعات، لكن أنا دلوقتي هاحضرشنطتي وأخذ فرح وأطلع على المطار، أقابلك هناك بعد ساعة واحدة يا مصطفى، ساعة واحدة مش أكترويكون معاك كل أوراق خروجي من البلد دي».

أغلق الخط ثم أطلق صرخة ملأها بكل ما يعتمل بداخله من غضب وهو يصرخ: «يا ولاد الكلب، يا ولاد الكلب، حملة على الفضائيات والسوشيال ميديا، المستندات اتسربت يا ولاد الكلب،

أقسم إني مش هسيبك يا طارق، هأقتلك زي ما قتلت خالد بإيدي دي».

– خالد، أنتَ بتقول قتلت خالد يا مراد.

التفت مراد مصعوقًا على أثر الصوت الملتاع ليقف مباشرة أمام أخته شاهينازوالتي تحمل ابنتها وتحدق فيه بذهول.

***

–29–

إذا أراد الله؛
سأحبك أكثر بعد الموت!
–إليزابيث باريت براونينغ–

في نفس هذا التوقيت كانت أبواب القصر تفتح على مصراعيها لسيارتي الحراسة والتي خرجتا في الصباح متحفظةً على طارق...

وعلى غير العادة وبدلًا من أن تكملا طريقهما إلى مبنى القصر وبمسافة ثلاثة أمتار فقط من أبواب القصر الرئيسية توقفتا وفتحت أبوابهما معًا ليخرج منها عشرة رجال دفعة واحدة، قاموا بهجوم مباغت على حراس البوابة...

وفي خلال أربع دقائق كانت أبواب القصر مفتوحة من جديد على مصراعيها وأكثر من ثلاث عربات ثلاثة أرباع نقل وخمس عربات نصف نقل محملين بأكثر من مائة رجل مسلحين بنبابيت والهراوات، كانت الخطة التي وضعها طارق تعتمد على سرعة انتشار المائة رجل في حديقة القصر وأن يتعاملوا بخفة وسرعة وحسم مع الحراسة المرابطة في أرجائها مستغلين عنصر المفاجأة ومتجنبين منح أي فرصة للحراس لاستخدام أسلحتهم النارية القاتلة.

كان كل ما يحتاجه لتنفيذ خطته هو الوقت حتى يصل العدد الكافي من الرجال لتنفيذ الاقتحام، كانت مجازفة كبيرة ومخاطرة

لكن التعليمات التي أصر عليها الحاج عبد الرحمن ألزمت الجميع بعدم حمل أي سلاح ناري، وظلَّ يكرر قائلًا لطارق: «إلَّا الدم يا ولدي، الدم ما له أخر، الدم بيجيب دم».

كان طارق ضمن أول المقتحمين، كان يتحرك بغضب جم، كان يبدو كمارد بقامته الفارهة وملابسه الداكنة ولونه الأسمر والنبوت الذي يقبض عليه بقوة بيمينه يلوح به يمنة ويسرى، يواجه به حراس شاهرين أمامه المدافع الآلية الحديثة، ولكن غضبه والعشرة رجال المحيطين به كانوا يهبطون على كل من يواجههم كالصاعقة.

كان أول مكان يتوجه إليه طارق هو الغرفة التي كان محتجزًا بها، بعدما تعامل ومن معه مع الحراسة المر ابطة على بابها ضرب الباب بقدمه فانفتح بدوى كبير، وما إن اقتحمها حتى تبين له جسد خالد الملقى على أرض الحجرة والدماء تسيل من مؤخرة رأسه.

انتفض كيانه من الغضب، ومَر أمام عينيه صور من فقدهم والده أمجد وكل أسرته والآن خالد، حمل نبوته ورفعه على رأس الحارس الوحيد المتواجد بالحجرة وهو يصيح بصوت زلزل كيانه: «الله يخرب بيوتكم، أنتوا عملتوا إيه في الجدع؟»

***

تطلع مراد إلى الفتاتان بذهول وهو يردد متسائلًا: «أنتوا ازاي خرجتوا؟».

لم يعبأ أحد بإجابته في حين أخذت شاهيناز تنظر إليه وتعيد سؤاله بصوت مفعم بالترقب والخشية: «أنتَ كنت بتقول إنك قتلت خالد، أنا سمعت غلط مش كده؟ بص أنا مش عاوزة منك أي حاجة خلاص، أنا هاخد بنتي وجوزي وأمشي وأسيب لك كل حاجة، بس جاوبني على سؤالي أبوس إيدك؟»

ابتلع مراد لعابه بصعوبة والتفت إلى الجهة الأخرى ليتحاشى النظر إليها وهو يقول: «كانت حادثة مش مقصودة، هو استفزني و أنا ما حسيتش بنفسي ضربته على.»

لم يكمل مراد جملته فقد هجمت عليه شاهيناز كنمرة مفترسة وأخذت تكيل له لكمات بيدها اليسرى بينما يدها اليمنى ما تزال تلتف حول ابنتها التي أخذت تصرخ فزعة من صراخ أمها: «قتلت خالد يا مراد، قتلت خالد يا حيوان».

اندفعت روان تنتزع منها الصغيرة وتحاول الإمساك بشاهيناز صائحة : «اللي حصل حصل يا شاهيناز، مش وقته الكلام ده، الدنيا هتتقلب دلوقتي ووجودنا هنا أكبر خطر، إمشي يا شاهيناز، إمشي عشان فرح مش عشانك».

كان مراد يتلقى ضربات أخته في صمت، حتى أنه لم يحاول تفاديها بيده، ولكن حين تحدثت روان لفت انتباهه كلماتها وهمَّ بسؤالها عن معناها لكن الحارس الذي كان موكلا باحتجاز الفتاتين اقتحم المكتب وقد تلطخت ياقة قميصه بالدماء...

نظرله مراد ثم تحرك إليه وجذبه بعنف قائلًا: «هي دي التعليمات اللي قولت لك عليها يا مَرة».

نسى الرجل ألمه أمام غضب مراد وأخذ يروي له مرتجفًا أنه كان يقف أمام الغرفة التي كانوا يحتجزون بها الهو انم حتى صكت أذنيه صراخ هستيري قادم من خلف الباب، وحين اقتحم الغرفة مسرعًا وجد شاهيناز هانم جالسة ومقيدة كما تركوها ما أن سألها عن سبب الصراخ حتى تلقى ضربة على مؤخرة رأسه أظلمت لها الدنيا من حوله.

وحين أفاق وجد زجاج المنضدة مهشمًا في جزء من حو افه ففهم كيف مزقا قيد معصميهما ومن ثَم تحامل على نفسه وهرع خلفهن.

ربت مراد على وجنة الحارس بقوة وهو يقول ببرود: «لأ فالح، بر افو عليك».

تركه وتحرك إلى خلف مكتبه وفتح الدرج الأعلى وبسرعة البرق أطلق رصاصة مدوية من مسدسه فسقط الحارس على الأرض جثة هامدة، بينما صرخات روان وشاهيناز والصغيرة تدوي في أرجاء القصر، ومراد يوجه مسدسه إليهم وهو يقول ببرود: «اللي تفكر تتحرك منكم هتكون الرصاصة الجاية في قلبها».

أخذت روان تنظر بخوف وفزع إلى جثة الحارس الملقاة أمامها، وقد انتشرت بقعة كبيرة من الدماء على صدره أخذت تتسع وتتسع ثم

صرخت بمراد: «أنتَ مجنون، أنتَ مش ممكن تكون بني آدم طبيعي، خلاص يا مراد كل حاجة انتهت، كل حاجة اتكشفت والناس عرفت حقيقتك وحقيقة كل الكوارث اللي عملتها أنتَ و أبوك في البلد، كل اللي على اللاب توب بقى في الفضائيات والسوشيال ميديا، وفي نسخة مطبوعة من كل المستندات وصلت للمخابرات العامة ورئاسة الجمهورية، مفيش حد دلوقتي في مصر مش عارف حقيقتك، أنتَ خلاص انتهيت».

ثم جذبت شاهيناز من يدها وهي تصيح بها: «تعالي نخرج من المزبلة دي قبل ما تتطربق على راسنا».

كانت شاهيناز تقف في حالة من الذهول جعلتها تنساق ليد روان الممدودة وتسير معها باستسلام، وما إن استدارتا وبدأتا في السير حتى انطلقت الرصاصة القاتلة من مسدس مراد.

***

لغر ابة الأمر لم تشعر روان بالألم والرصاصة تخترق جسدها، ولكن ما أفزعها هو الصوت المدوي الذي أحدثه انطلاقها، حاولت أن تلتفت بجسدها للاطمئنان على شاهيناز التي تعدو بجوارها، لكن قدميها خزلتاها، شعرت بجسدها يسقط على الأرض، استجمعت كل طاقتها المتبقية حتى تحمي جسد الصغيرة فرح، وحين ارتطم جسدها بالأرض لم تتأوه أو تصرخ لكنها مدت يديها قدر استطاعتها بالصغيرة لتعيدها إلى أمها سالمة.

انحنت شاهيناز تتلقف ابنتها وهي تصرخ باسم روان في فزع ولوعة، تأملت وجهها الذي بدأ في الذبول وبريق الحياة يتسرب سريعًا من عينيها، كانت تنظر إلى جسد روان المسجى أمامها ولم تدرِ بمراد الذي أسرع يغادر الحجرة ويمر من خلفها.

دارت عينا روان كأنما تبحث عن أحد وحاولت أن تتمتم بكلمات، لكن صوتها لم يخرج من حنجرتها بل انساب بدلًا منه من جانب فمها الأيسر خيط رفيع من الدم، فجأة دلف طارق من باب القصر المفتوح وخلفه العديد من الرجال، أخذ يبحث زائغ البصر في المكان بسرعة ولهفة حين لمح المشهد المريع.

ألقى نبوته وهرع ينحني إلى جانب روان ويهتف باسمها في لوعة، رفع ظهرها من على الأرض فهاله بقعة الدم المتدفق أسفل كتفها الأيسر بشبر، تلوثت يده وملابسه بالدم وهو يُرح رأسها بحنان على صدره، أخذت روان تفتح شفتيها وتضمهما، كانت تحاول أن تقول شيئًا لكن صوتها لم يطاوعها فضمها طارق إلى صدره وهو يقول بجزع: «بلاش تجهدي نفسك بالكلام يا روان، أنا فاهم كل اللي عاوزة تقوليه».

وضغط على راحتها التي بين يده ونظر إلى عينيها وقال: «حاولي تتحملي شوية و أنا بشيلك عشان مش عاوزك تخافي، أنا جانبك لحد مـ»

تركت روان يده ووضعت راحتها على شفتيه لتمنعه من الكلام، ثم تمتمت بصعوبة بالغة: «كفاية إن آخر حاجة أشوفها قبل ما

أفارق الدنيا تكون عينيك».

واستعانت على إكمال جملتها بأن عبت الهواء بصعوبة من فمها وكتمته في رئتيها للحظة وأخرجته قائلة: «وتبقى آخر حاجة أقولها بحبك».

وتراخى جسدها كله دفعة واحدة وخَفَتَ بريق الحياة من عينها فصرخ طارق بصوت متحشرج يخرج من بين مدامعه وعَبراته المنهمرة تبلل وجنتيه: «روان».

ساد الصمت لخمس دقائق كاملة إلَّا من صوت بكاء طارق وشاهيناز، في حين وقف باقي رجال الحضوركأن على رؤوسهم الطير، مسح طارق دموعه بساعده والتفت إلى شاهيناز التي لم يكنْ قابلها من قبل فسألها: «أنتِ شاهيناز؟».

هزت شاهيناز رأسها بالإيجاب وهي لا ترفع بصرها عن جسد روان، فتابع طارق: «خالد موجود في عربية بره، هو بخيرلكن محتاج شوية إسعافات».

ارتدت شاهيناز كالمصعوقة وأمسكت بيده بقوة وهي تقاطعه صارخة: «خالد؟! أنتَ بتتكلم عن خالد جوزي؟!».

ضغط طارق على شفته السفلى وهو يقاوم عَبراته المنهمرة دون إرادة منه ثم قال: «خالد بخيرالحمد لله، هو اتخبط على راسه ونزف كتير وغاب عن الوعي، لكن الحارس لمَّا اتأكد إنه لسه حي أسعفه وربط له الجرح، لكن لسه محتاج يروح أي مستشفى قريبة».

هرعت تحمل صغيرتها وتركض غير مصدقة، وساد الصمت من جديد، حتى نهض طارق وهمَّ بأن يحمل جسد روان حين سمع صوت مراد من خلفه يقول ساخرًا: «ما لسه بدري يا بتاع الضر ايب؟».

التفت طارق إلى الصوت فوجد مراد و اقفًا أمامه وبجواره حقيبة سفر كبيرة وبيده اليمنى مسدسه يوجهه إلى الجميع، وضع طارق جسد روان بحنان على الأرض وتوجه بوجه ملئ بالمقت والغضب إلى مراد الذي صاح محذرًا: «أي خطوة زيادة منك أو من شوية البلطجية اللي معاك هضربكم بالنار».

ثم تابع وهو يشير إلى الرجال المتواجدين أمامه: «واحدة واحدة كده يا حلوين اخرجوا بره».

خرج الرجال ورؤوسهم منحنية في حين وقف طارق في مواجهة مراد الذي أخذ ينظر له بتشفٍ كبير ثم قال: «أنتَ نسيت إني وعدتك قبل كده إنك مش هتخرج من هنا على رجليك».

نظر له طارق بتحدي وهو يقول: «و أنتَ فاكر إنك لو مَسيت شَعرة مني الرجالة اللي بره ممكن تسيبك تخرج على رجليك».

بدت الحيرة الممزوجة بالغضب على وجه مراد وهو يرفع المسدس ويحك به مؤخرة رأسه، وأخذ يتحرك جيئةً وذهابًا، ولبث على تلك الحالة لأكثر من دقيقتان، وفجأة اعتدل ونظر إلى طارق ووجه له المسدس من جديد وقال بصرامة: «امشي قدامي، أنت هتكون مفتاح خروجي من هِنا».

سار طارق وخلفه مراد حتى خرجا من باب مبنى القصر أمام عيون كل رجال طارق المجتمعين، وقد حاول بعضهم أن يتحرك في مواجهة مراد لكنه صرخ بأعلى صوته محذرًا: «اللي هيتحرك منكم خطوة واحدة هفرغ المسدس ده في راسه».

جمَّدت كلماته كل خطواتهم، وشلت تفكيرهم، وما زاد الأمر سوءًا هو دخول جيهان تسند جدها من بو ابة القصر، والذين كانا ينتظران في عربة بالخارج، حتى سمعا صوت طلقات الرصاص فهرعا فزعين إلى داخل القصر.

بدا التوتر جليًا على وجه جيهان وهي ترى المشهد الماثل أمامها، ولكنها استجمعت شتات نفسها وهي تصيح في مراد: «بص يا مراد بيه، أنا أبقى مرات الأستاذ طارق، أنا دكتورة ومتعلمة، اشتري مني الله لا يسيئك، كل اللي أنت بتعمله ده ما له فايدة واصل، مش هينفعك شيء إنك تزود جر ايمك أكتر، اسمع عاوزتهرب اهرب و أنا أوعدك إن مفيش أي حد من الرجالة اللي و اقفين دول هيعترض طريقك، اهرب ولا تأذينا ولا نأذيك».

أطلق مراد ضحكة عصبية قصيرة وهو ينظر إليها شذرًا ويقول: «بر افويا دكتورة، أنتِ جيتي في الوقت المناسب عشان تشوفي جوزك وهو بيدفع تمن وقوفه قدامي، خياله المغروروصله إنه ممكن يقف قدام.»

لم يستطعْ مراد أن يكمل عبارته، سقط على الأرض وثقب في جبهته ينز بالدماء، تكهرب الموقف وهرول الجميع في كل اتجاه وهم لا يعلمون مصدر الرصاصة، وهرعت جيهان تلقي بنفسها في أحضان طارق وهي تجهش بالبكاء، فاحتواها بين ذراعيه ليحميها وجده الحاج عبد الرحمن حتى تواروا خلف حائط يسترهم...

أمسكت جيهان بيد طارق وتسأله بجزع: «مين اللي عمل كده يا طارق؟».

أجابها في حيرة وهو يلهث: «مش عارف، ممكن يكون أي حد، مراد بقى كارت محروق لناس كتيرة كانت بتستخبى وراه، وموته هيكون مصلحة لناس كتير».

وبعد مرور أكثر من عشر دقائق على الرصاصة التي أصابت مراد، وخيَّم صمت كئيب على الجميع وهم يخرجون من مكامنهم، في حين دخل طارق من جديد إلى مبنى القصر وغاب بداخله لبرهة من الوقت، ثم يظهر واقفًا على عتبته وهو يحمل فوق ذراعيه جسد روان وقد قام بتغطيته في ملاءة بيضاء.

***

كان وجه طارق جامدًا مكللًا بالحزن وهو يسير بحمله، فلم يكنْ يشعر بأنه يحمل جسد روان المتصلب والخالي من الحياة بين ذراعيه ليذهب به إلى مثواه الأخير، بل كان يشعر أنه يحمل بين ذراعيه حقبة زمنية عزيزة إلى قلبه ونفسه وفؤاده يشيعها إلى مثواها الأخير، حياة عاشها بحلوها ومرها مضت وأُسدل الستار على آخر فصولها.

ستار أحمر قاني بلون الدم، أسود قاتم بلون أحداثه المريرة المؤلمة، وبخطوات بطيئة متثاقلة سارت جيهان إلى جوار زوجها متمسكة بيد جدها وغائبة في مشاعر حزينة صادقة نابعة من قلب صافي لا يعرف ضغينة أو يحمل حقدًا، في حين تحرك خلفهم باقي الموكب المهيب المكون من مائة رجل قدموا من أقاصي بلاد النيل ليكونوا شاهدين على اندثار عائلة عاشت وعاثت في الأرض الفساد، ولوثوا بأيديهم السمراء الفتية صفحة من صفحات هذا الوطن المبتلى بكثرة الطامعين.

***

تمت بحمد الله.

2018/6/5.

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com